الحقوق كافة
محـفـوظـة
لاتـحـاد الـكـتّـاب

البريد الالكتروني: unecriv@net.sy

E-mail :

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.org

❑❑

لطيفة الدليمي

حديقـــة حـــياة

روايـــة

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق - 2003

الفصل الأول

تعرف المرأتان أن لا سبيل للتراجع، فقد قالت الحياة حكمتها ورضخ القلب.

لا مجال للتراجع، فمهما يحدث للإنسان لا بد لـه أن يمضي قدماً، سواء نحو حتفه أو نحو نجاته، لا بد لـه أن يمضي قدماً.

ومثل من يسحب خيط ضوء من كتلة ظلام صلدة تسحب (ميساء) بإصبعين راعشين حلم عودته المستحيلة وتضع الحلم مثل تعويذه عتيقة أمامها. تفتح النافذة وتناديه لعل ضجيج الحياة وحركة الريح في أشجار الشارع تحمل نداءها.

ـ عد... ألا تعود؟.. تعال.. دع الصيف يزهر على يدي..

تعال ليفتتح الربيع المضيع في جسدي... عد.. أين أنت؟

تعرف أنه لم يعد يصغي لنداءاتها وهو غير قادر على سماع لغة غادرها، وما عاد قلبه يرتعش لإيقاعات هذه اللغة كما تقول أمها.. تعرف أنها تهدر صوتها في الفضاء العاري مثلما تهدر أيامها ولا تتوقف عن التشبث بالحلم المستحيل.

يرتد النداء في رجع الصدى مرتطماً بالجدران، لا أحد تبلغه الرسالة.

أوصدت المسافات بينهما وقتل المدى..

لكنها تستغرق في وهم استعادة تاريخ الحب، لا تعرف أن الذاكرة التي تحيي تفاصيل قصة الحب لم تعد متناغمة مع ذاكرته وهو في مكان مختلف وعالم آخر ومؤثرات تحرك فيه حوافز ورغبات جديدة.ـ

(لا يستعاد شيء تهاوى) هذه عبارة أمها التي لم تقلها، إنما تبلغها بهذا الصمت والتجاهل الذي تقابلها به كلما أشارت إلى قصتها مع (زياد)..

أوصدت المسافات بينهما وقتل المدى..

تسمع (ميساء) أو لعلها كانت تستعيد بإيحاءات من يأسها.. تسمع بلبلة لغات مختلطة تتشابك فيها الغايات بالأهواء بالقسوة والأمنيات والوقائع الصادمة، تسمع البلبلة وتدور حولها دوامات من كلمات غريبة تشقها صرخات غرقى في سفن ابتلعتها الخلجان، وأودت بأرواح ضلت السبيل إلى مصيرها..

تسمع أنين تائهين وصلصلة أغلال ونحيب نساء يتعالى من جنبات العالم الأربع مختلطاً بخطى مجهولة يتردد وقعها على الرصيف وتنتقل أصداؤها إلى داخل البيت مع الريح..

في الليل تسمع أكثر، تتفتح الحواس لكل صوت وصورة، تسمع فيما تسمع شهقات حب غامضة وأغنيات تموج على أثير الطرقات في الغبار والدخان الليلي..

تبحث في الليل والنهار على أثر يرشدها إلى ذلك الذي أخطأ ومضى فلا تعثر على علامة..

ترى (ميساء) نفسها في تشابك الشغف والخيبة، سمكة لم تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد وهي تطفو في مياه الأمل الضحلة معرضة للهلاك كل لحظة..

ولكنها تجد لها عزاءً راسخاً في بذرة الحياة العظيمة التي ترقد جوار قلبها وتدرك أنها بدأت تستفيق فتناغيها وترعاها لتتفتح وتسند ذلك الأمل العصي.. أمل عودته إليها..

تخرج في المطر الناعم إلى الحديقة المهجورة التي نسيت في زحام الحروب وتدهشها زهرة وردة حمراء تفتحت في وحشة الخراب النباتي وحدها على شجيرة صغيرة.. تقطف الوردة وتسرع إلى أمها..

إذن، البذرة ولدت ليس في أعماقها هي، إنما في رحابة الوجود على شجيرة ورد كادت أن تجف، تولد الحياة على مسافة دهر هو الزمن الذي يفصل بين تخلق الإنسان في تحولاته ونمو النبتة في الطبيعة رغم قسوة الوجود..

نزهات الحب القليلة في شوارع بغداد تستعيدها وهي تصغي إلى سقسقة العصافير المبللة المنتشية بالمطر، تسمعه يقول لها قبيل رحيله:

ميساء، نحن عاقلان بما يكفي لنرى الحياة من منظور آخر يضمن لنا عيشاً حقيقياً في أية بقعة من هذا العالم..

في البيت عندما يعودان.. يبتسم لأمها وهو يعانقها: أمنا العزيزة.. ألا يمكن أن يتغير شيء.. ميساء لا تريد أن تسمع..

نظرة الأم الصارمة تصدُ عباراته بنظرة محايدة وهي تذوّب السكر في قدح الشاي..

ميساء تتأمل اللقية السماوية زهرة الورد التي منحتها مفتاح الحقيقية وكشفت لها أنها لن تكون الخاسرة مهما حدث ويحدث..

زهرة ورد لم يكتمل تفتحها بعد أن أفلتت من ظمأ المدينة

وفناء الحدائق جعلتها تعيد حسابات الأمل..

هكذا إذن بوسع المرء أن يحيا بذاته دون اتكاء على شخص أو جدار أو وعود.. ألا يمكن؟..

تدندن أغنية للوردة التي لم يقدمها لها يوماً..

رجال المدينة ما عادوا يرون الزهور ولا بوسعهم التمايل مع الريح أو على إيقاع موسيقى ولا يستطيعون ترديد كلمة عذبة لتتوغل موسيقاها في نبراتهم الجافة..

هو مثلهم فتى من يأس وصمت ورمل ودخان ومن مساماته تفوح رائحة الحروب والموتى.

الدنيا عزلتهم عن شذا الأقحوان وألوان زهرة المنثور وعطر أزهار العسل في حدائق الليل، ما عاد أحد من هذا الجيل يرى شيئاً من روائع خلق الله في الطبيعة..

لا أحد منهم يلمس غصن ليمون وتصعقه الدهشة من نعومة الخضرة اليانعة، ولا أحد منهم يميز بين زهرة القرنفل وعلبة صباغ مصنوعة من البلاستك.

لا أحد يعرف نشوة أن يشم عبير الحشائش النضرة في هشاشة الأرض بعد المطر وقد رصعت بحبات لؤلؤ الندى..

الكارثة مسحت وجه الأرض وذاكراتهم وألقت رماداً على المروج والخمائل، ولم يحاول أحد منهم استرجاع الهبة العظمى..

ما أقسى أن يرتبط زمن الناس بأوان الرحيل لا بمواسم قطاف أو لقاح نخيل؟.. لا ميعاد يعرفون عن تفتح قداح البرتقال أو موسم نضج التوت.. لا أحد منهم تبقت لديه تلك الإشراقة الأولى للكائن الإنساني وهو يندغم بالأرض والهواء والعشب ويحيا في ملكوت الجمال البدائي.

هاهم يهيمون وحيدين بذاكرة لم تعرف سوى القبول بالإحباط والانسياق في شهوة الفرار..

ما عرف أحد منهم ومضة النور التي تشع من زهرة مشمش في أواخر شباط.. لهذا فهم لا يدركون كيف يستنون أرواحهم من خراب الأرض ولا يجدون وسيلة لإنقاذ النفس طالما لم يتوصلوا إلى الإيمان بما وهب لهم..

أمي.. لم أصدق.. زهرة ورد في حديقتنا المهجورة!.. شمي عطرها.. انظري أي لون.. يا إلهي.. ما هذا الجمال العجيب!.. انظري، خذيها..

أصابع الأم تأخذ الزهرة بحنان حذر.. تمسكها من ساقها النحيل المبلول وتضعها في قدح الماء.

ـ أعجوبة.. أليست أعجوبة يا أمي؟؟

عندما فقد أبوها في الحرب.. أمضت (ميساء) عامين في ذهول وغياب وهي تتعذب في كوابيس مروعة، طحنت طفولتها وسممت حياة الأم.. كانت تسمع أصواتاً وصرخات تنبت من الجدران أو تتعالى من الأثاث.. أصوات مجسدة ضخمة لها حجم

منتفخ كموجات الضباب، تتطاول وتكبر وتملأ الغرفة والهواء.

ميساء تلهث وتصم أذنيها وهي تحدق بعينيها في الفراغ هاربة من ملاحقة الأصوات لها..

أبي.. أبي..ـ

تتساقط مياه غزيرة على أشجار التين والنارنج في الحديقة وتنساب قطرات المطر على الأوراق الخضراء وتتقطر من جديد..ـ وعندما تسكن العاصفة.. تتحرك أضواء بعيدة في الأفق..ـ ثم يلوح لها وجه أبيها ويصطبغ العالم بلون وردي ويضاء المكان وينحل الظلام إلى غمائم والأصوات إلى نغمات غناء...

أبي.. أبي..ـ

تناديه ولا تحرك شفتيها، المضمومتين على الرغبة المستحيلة..

أبي..

تشم نسيماً يداعب وجهها به رائحة دخان.. تشم حريقاً يقترب.. تشم لحماً ينضج فوق اللهب، تغثو نفسها ويختفي وجه الأب وتتهاوى الضجة.

تبكي ميساء حتى يهمد جسدها الفتي الناحل.. تعطيها أمها أقراصها المهدئة تفرك جبينها بقشور البرتقال وتدلك كفيها ويديها بمغلي زهور الخزامى لتهدئ أعصابها ومنابت الأعصاب في الأطراف تمسح العرق الذي يسح من وجهها وعنقها ثم تدثرها وتحضنها وتتلو رقية بضع آيات وهي تمسد الجسد الراعش..

تطبق البنت عينيها وتروح في إغفاءة هادئة.. تنتظم أنفاسها ويلوح ظل ابتسامة على محياها..

ترى جنات وروابي معشبة، ترى أشجاراً مثقلة بالثمار والزرازير المنقطة وعصافير الحب، ترى النهر يفيض على الأجراف وتبلغ مياهه الرائقة التي لها ألق البلور عتبات الأبواب، تسير وحدها في الماء البلوري الرائق الذي يغمر بلاطات رصيف المشاة، تغترف منه وتغسل وجهها وترشه على صدرها.. وعندما ترفع عينيها ترى مبان شامخة في مدينة خيالها.. وفي كل مبنى مئات النوافذ المفتوحة.. في كل نافذة وجه امرأة تلتمع عيناها وهي تطل على دجلة الذي فاض على الأرض بهباته العظيمة، ترى العيون كل هذا، وترتعش أشجار الأجراف التي من سدر وصفصاف.. عيون لا تحصى تحدق بالمشهد والسماء وتعكس أضواء النجوم التي بدأت تنهمر مطراً من شذرات ضوء فتمتد أكف النساء من النوافذ لتجمع هبة السماء، جواهر النجوم المتهاوية، وعندئذ تضاء النوافذ والمباني بالتماعات وهاجة تتوامض وتشع بألوان عجيبة، ويسيل الضوء شلالات إلى الطرقات وتنزاح الظلمة وتتعالى الموسيقى وتصدح الأصوات بأغنيات الحب وتحلق أسراب الحمام في حركات قوسية وقد انعكس على بياض أجنحتها الضوء السماوي، بينما تتدفق جموع الناس إلى الشوارع لجمع المزيد من النجوم في سلال حيكت

من خوص النخيل وأغصان الصفصاف اللدنة..

بعد برهة، ترى النجوم تذوب في الأكف كأنها حبات برد، بينما تغرق بغداد في النور البهي والمياه الرائعة التي فاضت بها الأرض واتحدت مع فيوض أنوار السماء وبعثت المدينة في مخاض النور والماء وتعالت أغنيات الحب وموسيقى الأعياد وفاحت روائح الفجر.. شاي مخمر بالهيل وخبز قمح ساخن خبزته الأمهات قبيل صلاة الفجر وحلت في الأرض حياة جديدة وأطلقت الكلمات من عقالها.. سالت اللغة على الأشجار وبلاط الأرصفة، وقيلت كلمات الحقيقة.. و (ميساء) تسمع همساً رقيقاً.. تسمع أنفاساً تحس دفئاً يلامس وجهها..

هل استيقظت يا حبيبتي؟.. هيا..

تحس بالنهر يجذبها إليه، جسدها الذي يسح عرقاً يعوم في بلور الماء السائل.. والنجوم لا تزال تنهمر على بغداد..

تقول لأمها: أمسكي بواحدة.ـ حاول يا أمي.. اجمعي لي المزيد منها يا أمي..

تحضنها وتقبل جبينها: سأفعل.. عليك أن تستحمي.ـ ثم تتناولي إفطارك.. هيا..

أمي.. ماء النهر بارد شهي.. إنه يدغدغني.. أمي موجات الماء تدور بي.. أمي..

الريح تهمس لها وهي تدوّم حول البيت وتدحرج بعض الجذوع الجافة فوق سطح البيت.

الريح تردد قول الأب وهو يحلم بغد لابنته الصغيرة التي يريدها عالمة آثار:

أعطني ذاكرة.. أقيم لك مستقبلاً.

ترد الأم مدرّسة اللغة العربية مقولة أخرى كأنها تقاطعه، لكنها في الواقع كانت تسند رؤيته للعالم ـ أعطني ألماً.. أصنع لك حاضراً يعتاش على مقاومة ذلك الألم..

يروي لها الأب الذي كان مدرّساً للتاريخ حكايات لا تنتهي عن ماضي البلاد الممتد إلى الأزل..

تنام الأم برغم الريح، تنام أو تحاول أن تنام وصوت الرجل المفقود حاضر، تعثر عليه وحده دون الرجل بوجوده المادي، الصوت مادته أثيرية وطاقته لا تفنى، لذا فهو يطوّقها ويقرأ لها رسائل لم يرسلها من قبل عبر بريد الجبهة المحمول في جعب الجنود العائدين في إجازات دورية..

صوت الرجل لا يفقد ولا يذبل، يرتحل الجسد وتنتقل الحروب في البلدان والقارات، وتجفف العشب وتحرق الأيدي، تحرق العشب وتفترس الأيدي، صوت الرجل ينجو من النار، يطفئ الحرب بالحروف وينمو ويحيا ويتكاثر ويحط الليلة مثل حمامة على وسادتها.. يشاطرها الصوت ليلتها، فتنزف أشواقها إلى أعماقها..

في الليلة عندما تنتهي أعمال الأنهر الشاقة يحضر الجسد

المتعب، تعرف جسدها بتعبه وعناء الألم، تكتشفه بتشنجات الساقين لطول الوقوف وبألم العنق لطول ما انحنت على ماكنة الخياطة في مشغل (أم نور).

عنقها يتيبس ويزداد تشنجه، تنهض وتمسده بزيت الخزامى حتى يلين وترتخي العضلات وتتمدد، تلقي رأسها على الوسادة جوار صوت الرجل الذي يتنفس عبير السنوات الغاربة..

تمد يدها تحت الوسادة لعلها ترتاح في الظلمة الباردة الممتدة بين الوسادة والمفرش..

يحدثها الصوت عن زمن طاعن في القدم، يحدثها عن زمن سيأتي بعد شموس كثيرة..

كانت فيما مضى تدس يدها في يده وتنام.. ويضحكان وهما يتصوران لابنتهما الوحيدة تاريخاً حافلاً بالفوز، عمراً من نجاحات والشموس تتوالى، يضحكان والليالي تستولد أقماراً ويرسمان مستقبل البنت.

أريدها عالمة آثار تنقب عن العشرة آلاف مدينة التي لم يكتشفها أحد..

أنا أريدها عالمة فيزياء، لعلها تخترع شيئاً يوقف تدهور الزمن في أجساد الناس...

يغمض الأب عينيه، ترقبه الأم الشغوفة وتتألم، كان بوسعها أن تهبه طفلاً آخر وأحلاماً أخرى، لكنها أسقطت الجنين، كان ولداً هكذا أنبأتها الممرضة في شهره الرابع.. كان قد قال لها.. تكفي ابنة واحدة جيدة.. ألا تكفي؟

تضحك.. ألا تريد ولداً؟ ألن تفكر بالزواج من امرأة أخرى لتنجب لك الذكور؟

يقبلها.. كفي عن ترهات النساء.. نامي..

كان يغمض عينيه ويبتسم..

مابك...؟

أرى ميساء تعزف الكمان على مسرح قاعة الرباط..

والحضور يصفقون لعزفها البديع.. وهي تضارع السحر بعزفها.. كنت أتمنى أن يعلمني أحد العزف على الكمان.. أتذكرين.. أهديتك شريطاً عليه مقطوعات كمان كان (غانم حداد)... اسمه (غانم حداد)..

نعم..

يصمتان.. يسمع الرجل موسيقا هادرة.. ينصب وقد نهض بنصف جسده في السري.. موسيقا تسحق الروح بإيقاعها.. تهيج شهوة الحياة، يده تضبط الإيقاع.. موسيقا عاتية تهب عليه، طبولٌ.. إيقاع مارشات، يسمع الليالي وهي تنسحق تحت ثقل الهدير الجائح..

الطبول وحدها تبقى..

تبتسم المرأة إلى جانبه وتتسع ابتسامتها وهي تمسك بيده..

ما بك..؟

ألا تراها؟.. انظر إليها في ثياب التخرج، ألا تراها؟.. انظر إليها في ثياب العرس.. ألا تراها؟

إنها على سرير المخاض.. أنت تحمل المولود وأنا أنظف عنه بقايا الدم وألبسه ثيابا أعددتها له.. أتسمعه إنه يبكي.. والله إنه يبكي.

تنسحب من القول.. تتكئ على حلمها وحدها وتدعه يضحك من أشواقها لحفيد سيأتي بعد سنين لا يعرفانها..

تحمل الطفل ويبكي.. تقول لميساء:

خذي أرضعيه، امنحيه لبة الحليب الأولى، صمغ النجاة.. اعصري الحلمة في فمه.. ودعيه يمص هبة الحياة ليقاوم.... هيا لا تخافي.. هيا.. ابتدئي شوط الوجود.. لا تخافي..

تنقلب الأم في الفراش، تسمع عطاس ابنتها، ظلمة الليل تحط على كل شيء ويدها تنسحب من تحت الوسادة باحثة عن يده.. اليد التي تحولت إلى كلمات.

تذوب البنت في ما وراء المرض والكوابيس وعقلها تتجاذبه الرؤى وجسدها ينحط بثقل الكوابيس وتفقد شهية الحياة..

تأخذها إلى أطباء، تأخذها إلى معزمين وتزور معها مشعوذات وعشابين يقدمون لها خلطات من بذور وأعشاب ومساحيق غريبة وزيوت، جاؤوا بها من كشمير وتايلند، يبخرونها بحرق أصماغ عطرة، يسقونها مغلي أعشاب كريهة المذاق، يدهنون جسدها بدهن عطر ويعلقون الأحجبة على رأسها..

لا تشفى.. تنسحب البنت إلى صمتها وتتوقف عن ارتشاف تلك المغليات المرة والأعشاب الحارقة.

تطرق الأم باب رجل يسمونه (الشافي) يعالج المرضى بالطاقة التي يمتلكها في أصابعه..

يقول للأم بعد أن ينظر إلى البنت:

هالة الطاقة المحيطة بها مفككة ومضطربة.. ليس من انتظام.. ابنتك متعبة، روحها هلعة..

ترقد البنت على أريكة العلاج يغطيها الرجل بمفرش ويمرر أصابعه فوق رأسها دون أن يلمسه يخلق بحركة أصابعه مجالاً من الطاقة فوق الجسد ويداه تتحركان في الهواء حول أطراف الفتاة المغمضة العينين.. تكاد تغفو وهي تستمع إلى موسيقا هادئة يرسلها جهاز الكومبيوتر في غرفة العيادة، موسيقا تبعث على الاسترخاء.. تحنو على الفتاة وتهدهدها، تنام.. أو يبدو أنها تريد ذلك..

تعود الكوابيس بعد علاج يدوم شهرين..

تتوقف الأم عن الذهاب إلى الشافي فقد أرهقتها التكاليف وأجور التنقل من بغداد إلى (المدائن) حيث يقيم المعالج.

تستيقظ ميساء منتصف الليل مغمورة بأسىً شفيف، قلبها

مضطرب ونبضها يتوالى متسارعاً.. تتشهى أطعمة حرمت منها، يداهمها جوع دهري.. تبحث عما تأكله في المطبخ، ولا توقظ أمها..

تريد أن تفعل شيئاً، لا بد أن تقوم بشيء ما.. مؤكد أنها تستطيع فعل شيء لنفسها ولأمها.. ولكنها تتراجع.. تستسلم لنومة طويلة، تستغرق في نوم وصحو لأربعة أيام وليال..

وعندما تستفيق تقرر أن تشفى، ستفاجئ أمها.. ستعود الأم إلى البيت وتجدها في صورة أخرى إنما لم يتم الأمر بهذه السرعة..

تنظر ميساء إلى وجهها في المرآة.. تراه شاحباً.. ناحلاً.. وترى جسدها الهزيل برزت أضلاعه.. ترى دوائر قاتمة حول العينين، ترى بثرة صغيرة وردية قرب زاوية الفم..

الجوع يحضر كل ساعة، وهي تتناول كل ما تقع عليه يداها، وتغويها الأم بمشهيات ومخللات لفت وخيار..

ترى الأم نسغاً ورديا يسري في شحوب الوجنتين، وتعيد النظر في تغيرات الطفلة المتتالية التي انشغلت عن استحالاتها بعلاج كوابيسها، تكتشف الأم أن الصبية تغادر الطفولة إلى عتبات الأنوثة فهاهو الجسد النحيل الضامر يشق الشرنقة التي ضاقت عليه وينبت لـه جناحات من نزق المراهقة ونهم النضوج..

تنتاب الجسد الصغير آلام متحولة، ويسري في أطرافها ما يشبه الكهرباء وشيء ما يتململ في الأعماق ويتكثف الألم في الصدر الضامر. يبرز قرصان مستديران جامدان تحت الجلد فوق انحناءة الأضلاع البارزة مباشرةً..

تخاف الصغيرة مما يحدث لها.. تصمت، لا تسأل أمها، لا تشكو.. وتعرف الأم أن النضج لا يتم إلا بتجربة الألم..

تفكر ميساء أن أباها كان مختلفاً عن الرجال أو هذا ما تريده أن يكون، مثلما ترى أمها مختلفة عن النساء، وهي تفرك الزمن بالدموع كلما ساءت الأحوال واضطرب وضع البيت وازدادت الحياة عسراً..

تقول الأم: هل تفهمين؟.. نحن.. أنا وأنت عندما نجونا من حربين فقد تحققت لنا معجزة.. وهبنا الله حياة سلبت من الآلاف.. لذا لن تكون حياتنا حياة اعتيادية كباقي البشر.. افهمي هذا..

تذكر هذا، تذكر ما كان أبوها يلقنها في الأماسي وهو يذاكر لها دروسها..

إياك والضجر.. لا يضجر إلا الخاسر.. هل أنت خاسرة؟

لم تكن تفهم حينئذ تلك العبارات التي يرددها لها هي الطفلة التي تتابع أفلام الكارتون بطرف عينها والأب يتصفح معها كتاب العلوم..

أحبت فيه تلك الدعابات وألعاب الظهيرة عندما ينتهون من

تناول الغداء وتحضر أمها صندوق لعبة (الدومينو) أو (الشطرنج) المصنوع من عاج أو أبنوس وتبدأ المباريات ويحصل الفائز على جائزة من شيئين اثنين: كتاب جديد أو إعفاء من جدول العمل البيتي في اليوم التالي.. وفي النهاية يفوز الجميع بضحكة..

تصغي البنت لأصوات الطبيعة وتصمت وهي تستمع إلى انهمار الماء أو حفيف الأشجار أو هفهفة الريح. علمها أبوها مذ كانت في الرابعة كل أسرار الطبيعة.. جعلها تنصت لسقسقة العصافير في الصباح قبيل شروق الشمس أو تستمتع بضجة الطيور في الأماسي عندما تعود قبائل العصافير والحمام إلى أعشاشها ساعة بزوغ القمر وهي ترقص أو تردد أغاريدها.. وتشتبك مع بعضها لتدافع عن موطئ جناح يكون جائزة طيران طويل استغرق أنهرَةُ الشتاء..

كان يقول لها أو لعله أراد أن يقول لها:

انظري هذه العصافير تعود من كد النهار وكل طائر يروي قصة مغامرته، يحدث القبيلة عن معركة خاضها وحبة قمح فاز بها أو ثمرة قنصها من طائر آخر.. وكل طائر يتعلم حين يحكي ويتعلم حين يصغي ويضج الجميع معلنين بهجة الريش برعشات الحياة..

شجرة التين الجافة العارية تساقط حبات سوداء صغيرة كانت مشروع ثمار شهية جفت فوق الشجرة وسقطت في الشتاء..

ريق الفتاة يتحلب لمذاق التين والفم يتذكر عسل المذاق وطقطقة البذور تحت الأسنان ويقطف الأب تينة أو اثنتين، وحين تطلب المزيد يقول لها:

لا.. أنت حصلت على نصيبك من هذه الشجرة.. وما تبقى من التين رزق العصافير والحمام..

انظري.. هاهي حمامة تحط على شجرة الكمثرى، تنتظر أن نبتعد.. هيا.. فلندخل.. سترين أنها ما إن تطمئن حتى تنال حصتها من التين.

كان يحملها بين ذراعيه ويؤرجحها في الهواء فترى العالم يدور ويدور إلى ما لا نهاية..

هي تذكر ذلك، وتذكر ما كان يقوله الأب:

العيش ممكن للجميع إذا عرف كل إنسان حدود كفايته ولم يأخذ ما يزيد على حاجة العيش..

هل هذا قول أبيها؟

أم هي حكمة أمها التي تتدبر أمور حياتهما في عسر أيامهما وبما تبقى لهما فيها؟

الأم تستعين على البكاء بالبكاء، وميساء تهيئ نفسها كل ليلة لقدوم الأب..

في أوقات معينة يتملكها اليقين، وتحس بشيء كالبشرى يلوح لها: سيأتي هذا المساء، فيدفع بها هذا اليقين إلى أن ترتدي

أجمل ثوب لديها.. وهو ثوب طويل بلون أرجواني تزينه نقشات هندسية وعلى حافاته شريط مخرمات اشترته لها أمها من أحد باعة الملابس المستعملة بعد أن ضاقت على جسدها المتغير ثياب طفولتها..

تراها الأم وهي تفك ضفيرتها وتسدل شعرها الطويل الكثيف الذي اكتسب تجعيدات متعاقبة لطول ما ظفرته لها..

تفكر.. لماذا لا أملك شعراً أملس ناعماً مثل شعر أمي؟.. هل سيحبني أبي بهذا الشعر القبيح؟

تفكر.. سأطلب من جارتنا (ساندرا) الحلاقة أن تغيره، سأقول لها: أرجوك اجعليه ناعماً أعرف أنك تصنعين أشياء جميلة لشعر البنات.ـ أمي أخبرتني.ـ

لكنها لا تذهب إلى (ساندرا) لأنها تتجنب إغضاب أمها التي ستؤنبها بقسوة وتعاقبها بالصمت بعد ذلك..

ـ هذه ترهات بنات طائشات، دعك من هذه الاهتمامات..

وعند ذلك كانت ستصمت ولن تجادلها وتتقبل شعرها الجعد وتنسى غيرتها من شعر أمها الجميل عندما تختلس نظرة إليها فتكتشف في الضوء ظهور خصلات رمادية عند صدغي أمها وأعلى الجبين.ـ

لا بأس.. سيجدني أبي فتاة جميلة.. الأهم لدي أن يعود..

في الغرفة، لم يتبق غير أثاث قليل وأريكتان مكسوتان بمخمل محزز لـه لون الرمل، أو أنه بلون التمر الناضج.. على الأريكتين تضع الأم وسائد مزركشة وإلى جهة اليسار من النافذة الواسعة كانت هناك منضدة تستخدمها ميساء لوضع كتبها التي أدمنت قراءتها وكتب أبيها التي سمحت لها الأم بقراتها..

وما عدا ذلك ليس غير خزانة ثياب وجهاز راديو قديم.. باعت الأم جهاز التلفزيون لتسدد مصاريف علاج البنت..

فوق الجدار الأيمن لا شيء غير صورة زفاف الأم والأب صوراها لدى أستوديو (ريم) في حي المنصور وقد اشتهر هذا الأستوديو بإضفاء اللون الأخضر على عيون الأشخاص الذين يصورهم برتوش تغير ملامحهم وتحول الوجوه إلى مرايا صقيلة بعيون فاتحة خضراء أو عسلية..

الأم كما تراها ميساء تقف بثوب زفاف أبيض بأكمام طويلة تزينها مخرمات وأحجار لامعة وتكلل شعرها الأسود غمامة من التول والزهور الصناعية والأب الشاب يرنو إلى الأمام بنظرة جامدة برغم اخضرار العينين الزائف، لربما كان يرى في دورة الزمن ما يخبئه القدر لهما من لون الرماد..

أو ربما تتوهم البنت كل هذا..

تقف ميساء أمام صورة الزفاف وتغمض عينيها.. ولا أحد يعرف ما الذي تتخيله..

ستراه.. ستحبه أكثر.. تستدير وترى الستائر المسدلة على النافذتين، ستائر عتيقة جداً لكنها تحبها لأنها تثير فيها الخيالات

وقصص الجنيات والأميرات المسحورات.. ستائر من فيوض نسيج مخرم لـه ثنيات غزيرة مع قماش ستائر منقوش بلوحات رومانسية كانت شائعة في الثمانينات من القرن العشرين.. في اللوحات المتكررة سيدات بمهابة ملكات أو أميرات يرتدين ثياب سهرة منفوخة تحت الخصر وقد تعرت أكتافهن مثل ثمار مقشرة وفوق رؤوسهن أكاليل زهور أو تيجان ذهب، يقفن ضمن مشهد فردوس فيه خمائل زهور وعازفو قيثارات وينابيع أو نافورات وفي أيدي السيدات مراوح ينسمن بها للتخفيف من حرارة الجو أو يطردن بها الحشرات الطائرة الحوامة بينما ينحني أمامهن رجال متأنقون لهم جدائل شعر طويلة لامعة وهم يقدمون ولاءات العشق مع باقات زهور نضرة للسيدات المترفعات اللائي يبدون مثل الدمى وكأنهن لا يبصرن هؤلاء الرجال..

يرتجف قلب ميساء كلما نظرت إلى المشهد البهي وتخال نفسها إحدى فاتنات اللوحة أو تنتقي رجلاً من هؤلاء الذين سحرهم الحب.. تتمنى.. وترى.. ولا ترى.. تخطف واحداً.. تأخذه إليها، تستأثر بباقة الورد وتتنشق شذاها.. تسير رافعة الرأس في الغرفة وهي تجر أذيال ثوبها ذي الطبقات الكثيرة وتنسم بمروحة من ورق..

بمرور الأيام وطوال أمسية انتظارها لأبيها.. لاحظت تغير لون الستائر التي لطول ما تعرضت للشمس والهواء والأحزان حالت ألوانها، حتى إن ميساء لاحظت ظهور الغضون على وجوه السيدات الجميلات المتكبرات في وقفتهن الأبدية الجامدة..

اكتشفت ميساء أن ثيابهن المدهشة قد تهدلت وتجعد الحرير وتمزقت المخرمات في أكمامهن..

وزال عن المشهد المترف رونقه، ولم يتبق من حلم الفردوس سوى باقات الزهور التي احتفظت بنضارتها وكأن أنفاس الرجال العاشقين نفخت فيها سر الحياة الدائم..

تنسى كل هذا ، وتفتح الستائر متغاضية عن مصائر السيدات الذابلات في مدينة الخيال حيث تحطمت القيثارات ونام العازفون.

تنظر عبر النافذة فترى سماء بغداد الذهبية وأمواج الغمائم البنفسجية مع جبال اللهب التي يستولدها الغروب، تقف جامدة إزاء هذا المشهد الناري لكن سرعان ما يتلاشى اللهب وبنفسج الغيوم في زرقة الليل الداكنة التي تطوي كل شيء وتجرف تحت ثقلها بيوت المدينة وقلوب نسائها المنتظرات..

تمر أمامها سيارات، وسيارات لا تحصى، سيارات قديمة وسيارات شرطة مرور تومض مصابيحها الحمر الدوارة منذرة بما لا تعرفه..

سيارة إسعاف تزعق وهي تسابق سيارة بائع الغاز، سيارات النفايات وسيارات الناس.. مركبات بألوان وأصوات تؤجج الحياة في الشوارع وتترك وراءها خطوطاً ضوئية حمراء أو ذهبية..

ترى أن السيارات تتناقص في أيام معينة وتزداد في أيام أخرى.. وقد يخلو الشارع أحياناً إلا من سيارات الخدمات فتعرف إن ثمة مباراة في كرة القدم يبثها التلفزيون، أو أن هناك مسلسلاً مكسيكياً مدبلجاً يعرض نساء فاتنات صقل جمالهن وبولغ في أناقتهن وهن يدبرن المكائد أو يفضحن دسائس أعدائهن وينجبن أطفالاً مجهولي الاباء يعقدون حكايات الحب والثروة..

وميساء تؤدي لدى كل غروب طقس الأمل، وتقف في الحديقة أو أمام النافذة، معتقدة أن المفقودين يعودون مثل الأسرى أو هكذا تريد، ولربما سمعت ذلك من أمها..

تنام البنت والمرأة في ظلمة البيت ومعهما تنام تلك العذابات أو تتنامى خلال استغراقهما في الأحلام أو الكوابيس..

تنام البنت أحياناً في حضن الأم وتعوم في مياه دفئها كأنها تعود لحالتها الجنينية وتسبح في مياه المشيمة محمية من حروب العالم وجوعه، تغلق البنت عينيها وتنام وتريد أن تنسى السواد الذي تذروه الحروب على قلوب النساء وأجساد الرجال الذين تلمحهم الحرب وتجففهم أو تذروهم في الرياح..

شجرة التين الضخمة لم تكن أقدم كائنات البيت، كانت هناك السحالي التي تجدد جلودها والأفعى التي تغير جلدها كل عام.. وهناك (حياة) وزوجها المفقود (غالب)، هما أكبر عمراً من الشجرة، لكن الحديقة بعشبها البري ونبات الخروع والحلفاء والخباز أكبر عمراً من البيت ومن فيه فهي الشاهدة على عبور الزمان وتبدلات الفصول وتحولات النجوم في أفلاكها..

هي التي تشربت الأغاني والصرخات وصرير العربات وصهيل خيول المحاربين القدامى وهدير الرعود وانهمار المطر..

وجدت الحديقة هنا قبل أن يشاد أي بناء وقبل أن تزرع الأحواض بالزنابق البرتقالية المعمرة أو تغرس شجيرات الجوري أو شجيرات الياسمين..

كانت (حياة) قد قالت لـه في عام زواجهما الأول:

لو كنت زرعت لنا نخلة أو اثنتين في الحديقة..

وتتذكر أنه قال لها: لا أحب زراعة النخيل في البيوت فللنخلة ظل هائل يحجب الشمس عن العشب والورود..

ولكني أحب أن تكون لدينا نخلة.. نخلة واحدة في الأقل..

سأهبك واحدة.. سترين.. سأهديك واحدة..

كان ذلك قبل أن تولد ميساء، خلال أولى سنوات الحرب عندما كانا وحيدين كأي عاشقين ولكنهما كانا قلقين، لا يعرفان ترف العشق الذي تصفه قصص الحب والأفلام وأيامهما تتصدع بموت أخوة وأصدقاء، بسقوط صواريخ على المدينة في أية ساعة من ساعات الليل والنهار..

يظلم المساء بسرعة قبل أوان الظلام في أماسي الغارات وهي في اضطراب الوحام تشتهي ما لا طاقة لـه على إيجاده في أمسية الحرب.. كان يعدها بأن يحقق رغباتها بعد حين ولم

يحقق شيئاً.. ولا زرع لها نخلة..

لكنه بعد أشهر، ربما بعد عام من ذلك الحديث يدخل البيت وهو يحمل شيئاً كبيراً مربعاً، شيئاً صلباً مغلفاً بورق الجرائد ويضع الشيء على المنضدة ويقول لها:

ـ ألا تحضرين لنا الغداء.. أكاد أموت جوعاً.. وتضحك (حياة).. ليس بمقدروها تحمل رائحة الطعام، لكنها تتحايل على غثيانها وتعد وجبة شهية..

يقدم لها المغلف، يطالبها أن تفتحه، وتمزق أصابعها ورق الجرائد، وتظهر اللوحة.. تشهق حياة.. هل سرقتها من المتحف؟

بل طلبت من صديق أن يرسمها.. كانت رسماً صغيراً لا يأبه به أحد على ختم أسطواني فأردت أن أحولها إلى قصة أو حكاية نرويها.. أخرجت الرسم السومري المقدس من صمت وظلمات المتحف ليضاء بنظرتك إليه..

ـ شكراً.. ولكن ما هذا؟

ـ بداية الخسارة..

ـ أية خسارة؟

ـ فقدان الفردوس..

ـ أكان للسومريين آدمهم وحواءهم؟

ـ ألا ترين.. هل يحتاج الأمر للشك أو للشرح، رجل وامرأة وبينهما النخلة.. شجرة معرفة الخير والشر ووراءهما الأفعى، وهما يمدان أيديهما إلى عذوق النخلة الدانية..

ـ انظري.. كلاهما يقطفان، لم تكن حواء هي البادئة، لكن الأفعى تقف وراءها وتغوي الرجل الذي يواجهها.

ـ أهذا يعني أنهما..

ـ أنهما شريكان في المعرفة وليسا شريكين في الخطيئة، هذان لم يقترفا خطيئة الجسد.. بل جازفا بالفردوس من أجل المعرفة فعرفا نفسيهما في الشك وتجربة السؤال..

الأفعى لم تكن شيطاناً بل هي (شهوة المعرفة العظيمة) والمعرفة أخرجتهما من أمان الفردوس الأزلي إلى أرض المجابهة مع الموت..

ـ أتظن أني سأكتفي بنخلة مرسومة بماء الذهب؟

ـ أعتقد أننا سنكتفي بهذا..

ـ ولن نترك لأبنائنا شجرة معرفة؟

ـ لا أريد لهم أن يعرفوا أكثر مما هو متاح لهم أن يعرفوه.. سأدعهم ينعمون في أمان معرفتهم المحدودة بالأشياء..

ـ أنت الذي يقول هذا؟

ـ ماذا قلت؟

ـ ظننت أنك تفكر بطريقة أخرى..

ـ هذا ما يظنه الجميع.. يريدونك أن تفكر بما لا يجرؤون عليه بدلاً منهم..
ـ ولكنك تفعلها..
ـ أحياناً أتواطأ مع الذين حولي ضد أنفسهم..
ـ ضدي أيضاً..
ربما.. إذا كنا نمثل اثنين منفصلين يمكن أن أكون ضدك..ـ
تضحك، تحب أفكاره، تنعشها الحوارات وأحاديث المعرفة، ترتفع بها الأعاجيب التي يبثها في كل يوم..ـ تحبه أكثر.. تحبه..
يأخذها بين ذراعيه في غسق النهار حين يمحي ظل الأشجار عن النافذة وتنهمر الظلمات مع لون الشفق الوردي.
يتقوس الوقت في أشواقهما..
ـ أحبك..
الرجل يمسك بالزمن ويسدد خطوته التالية نحو الغد..
يضحكان معاً.
يعلمها كيف يحيا الإنسان صورته في الآخر.
تقول له: أحبك لأني أرى فيك ما تجهله عن نفسك..
ـ أحبك، وأعرف أن من يتفانى في حب امرأة يعيش تجربة أكمل وأسمى وأبلغ من أية تجربة أخرى، حتى تجربة الموت..
ـ يخيل إلي أن نخلة معرفة الخير والشر عجزت عن إسعاد الرجل والمرأة، هذا ما فهمته في الأقل.
لو تفانى فيها حقاً لما تشهى ثمرة النخيل بغواية أن يعرف.
ـ حقاً، ولكن ألا ترين أنهما لو امتلكا السعادة لما انشغل التاريخ بهما، ولما دونت أسطورتهما الأيام، ولكنا نسيناهما وما عرفنا عنهما رسماً ولا حكاية.؟
ـ إذن دعنا نكن سعيدين وليذهب التاريخ إلى أساطيره..ـ

****

الفصل الثاني

(1)

كل شيء يسقط من الزمن، ولكن أين يسقط الزمن؟
من يجمع شتات الأيام والسنوات والدهور؟
كيف يقيس الحزانى مادة زمنهم؟

لا أحد يسأل وليس من إجابة فالأيام تقاس كل آونة بطريقة مختلفة..

تقيس الست حياة أيامها بالمرارة، أو بسلامة العقل الذي يتحمل ما لا يطاق، وتقيس الليالي بثبات القلب وقدرته على احتمال المصاعب ومراوغة العوز أو مغالبة الجوع..

تحسب عمر ابنتها التي بلغت الرابعة عشر بسنوات الفقدان..

ما عادت بحاجة إلى أدوات قياس الزمن...

فلا الساعات ولا التقاويم ولا المنبهات الرنانة قادرة على قياس الوقت وتحديد مادة الزمن..

قلبها وحده، قلب المرأة هو الذي يحسب الزمان على وفق إيقاع خاص لا تدركه الآلات ولا روزنامات القرون الجديدة ولا يمكن لسواه أن يلاحق نبض الزمان الخفي..

تقيس حياة الأيام بما يتراكم على عتبات بيتها من غشاوة الأحزان التي تتصدى لها وتكنسها مع ما يتساقط من ورق الشجر الذاوي...

كان يقول لها: كل شيء يحدث بالتناقل..

ـ كيف؟

ـ إذا تعرضت لكارثة أو تسببت أحداث معينة في تدمير معنى

الحياة لديك، فاعلمي أن هناك أناساً في الجانب الآخر من العالم قد نالوا رفاهاً أو حظوا بثروة على أنقاض ما فقدت..ـ

ـ أكاد لا أفهم.. ما معنى كل هذا؟

ـ يحدث الأمر دائماً بطريقة معكوسة في طرفي العالم، فما تحرمين منه يناله الآخر حتماً..

ـ أنت تبسط الأمور.. لا أظن أن الأشياء تحدث بهذه البساطة.

ـ هي هكذا يا حياة فإن أشعلوا حرباً هنا.. أو تسببوا في خراب جزء من العالم فإن أثرياء جدد سيظهرون هناك وتتنامى ثروات ورساميل الشركات في الجهة الأخرى من الأرض..

ـ لكن.. ألن يأتي يوم ينتهي فيه كلّ هذا؟

ـ سيحدث.... ولكن متى...؟ـ

- ربما في زمن أولادنا.. ربما..

أحياناً يظن البشر أن الحروب ماتت إلى الأبد، وأن خضرة الحقول قد زاحت سواد الموت، ويتخيلون أن السلام قد فرد جناحيه على الدنيا، وينسون أن الحرب تختبئ تحت ضحكة الحياة

ـ لا تفزعني...ـ لا بد أن تنتهي الحروب في يوم ما.

ـ سيحدث عندما يوجد الكثير من أمثالنا..

حين ولدت ميساء، بدأ قصف المدن بالصواريخ، كانت الصغيرة تحبو وتتعلم أن تقول كلماتها الأولى المقطرة من حاجة الإنسان للبقاء..

أخذتها أمها إلى طبيب وقال لها:

الصغيرة تبشر بنضج عقلي مبكر.. اهتمي بها.

قال الأب: ستكون كما أريد لها أن تكون، تحقق أحلامي التي لم أقطفها لأسباب لا أملك التحكم بها..

ستغرق المدينة في عواصف غبار أحمر وسينهمر رمل الصحراء المحاذية للمدن على المباني والأشجار، ولن يتبقى على أشجار المدينة من الطيور إلا ما لا قدرة لـه على الطيران بعيداً..

هجت أسراب الحمام والعصافير والزرازير وغابت الشحارير والبلابل منذ سقط أول صاروخ على بغداد.. لم يتبق من طيور الببغاوات الأنيقة بألوانها الزمردية وطيور الحب النزقة المحجوزة في الأقفاص..

هجت القطط إلى حين ثم عادت عندما أدركت بغريزتها البدائية أن الحرب ستطول..

أقامت عشيرة من القطط في حديقة البيت وكانت حياة تقدم لها بقايا الأطعمة وتتحمل ألاعيبها وخدعها المسلية..

عندما كبرت بدأت تلاعب صغار القطط وتطعمها أو تقف على مقربة منها وهي تتمدد في كسل لذيذ حتى الشمس وتلعق

فراءها الناعم وهي مغمضة العينين.

تسمع حياة مواء قطة في الحديقة وهي عائدة هذه الظهيرة من المدرسة الثانوية مع ميساء، تبحث عن مصدر الصوت فتجد قطة مختبئة وراء كومة أغصان جافة وهي تلاعب عصفوراً مفزوعاً قبل أن تنقض عليه..

تضحك ميساء لفظاظة القطة فتقول لها الأم:

ـ هذه هي الحياة.. هي هكذا قائمة على الصراع..

بعد الغداء تنهمك بتصحيح كراسات الطالبات وتعثر على طرف أدرجتها الطالبات في دفاتر الإنشاء، انعكاسات لما تحدثهن به..

إنهن يستوعبن حكاياتي جيداً..

كانت قد حدثت البنات بطريقتها الشيقة عن أحوال الأسماء والأفعال والحروف وكشفت لهن عن عمل الضمائر الظاهرة والضمائر المستترة التي غيبها اسم متقدم مهيمن.

تقول لهن: عندما يرتبط الاسم بضمير من الضمائر المتصلة فإن الاسم والضمير يتلازمان ويؤثر أحدهما في الآخر إلى ما لا نهاية..

تسألها البنات عن أسرار القول وتدلهن على قوة الكلمات وقدرتها على تغير صورة الحياة..

الفعل يمكن أن يبنى للمجهول وعندئذ سيرفع المفعول به رأسه ويشمخ بهامته عالياً، بعد زوال مؤثرات الفعل عنه تقول لهن: الأسماء لا ينكسر حضورها إلا إذا استسلمت لغواية الجذب والجر أو إذا أضيفت إلى سواها ولم تكتف بذاتها مثلنا نحن البشر، إذا امتلكنا قدرة أن نتحكم بأنفسنا دون اتكاء على آخر فلن نتعرض للكسر أو للجر بالإضافة إلى سوانا..

تضحك البنات، تضحك الست حياة وتقول لهن:

باللغة يمكن إقامة أشياء عجيبة أو هدم أشياء أخرى.. هنا تكمن قوة الكلمات.

تسألها ابنتها بنوع من المشاكسة أمام الطالبات:

ست حياة، وإذا كان.. يعني إذا كانت إحدانا خرساء، ولا يمكنها نطق اللغة فماذا ستفعل؟

سيقودها حدس القلب..

عندئذ تشرق وجوه البنات: سيعتمدن مشورة القلب..

عند انتهاء تصحيح الكراسات تمضي الست حياة ساعتين في العمل خياطة في مشغل (أم نور) لإنتاج ملابس الأطفال حديثي الولادة، تنجز الست حياة خمس مجموعات كل مساء، قمصاناً صغيرة وأغطية رأس وأقمطة تناسب الأجساد اللينة الصغيرة التي خرجت إلى الدنيا توا..

تقوم الست حياة عند انتصاف الليل بإعداد عجين خبز اليوم التالي فقد صار إعداد الخبز طريقة لقول سر الحياة.. صار

أسلوباً للمكوث في الزمن..

تعرف الست حياة أن إعداد الخبز يمكن أن يقوم به آخرون.. أن يشترى حالياً من المخابز بعد أن عاد تشغيل محطات الكهرباء في بغداد، لكنها تواصل إعداده في البيت كجزء من وسائلها لمقاومة الحزن أو الفناء..

يقوم سر صناعة الخبز على فكرة اللقاح ذاتها التي تديم حياة الكائنات الحية من الأحياء والنباتات.. فهذه الخميرة التي تقتطعها النساء من عجينة الأمس، هي التي تنضج عجين الغد بأنزيماتها الفعالة.. خميرة يمتد عمرها إلى ما لا يعرفه أحد من عدد الدهور والسنين، تشبه خلايا الأسلاف التي تنتقل من جيل إلى جيل عبر الإنجاب لتدوم الحياة..

لا يدري أحد حين يتلذذ بقطعة خبز ساخنة هل انحدرت إليه الخميرة من بين يدي جدة عباسية أو خمرتها جارية جيء بها سبية من سمرقند أو بخارى أو أنها جاءت من بين يدي زوجة بابلية عجنت دقيق الشعير في آنية فخار مزوقة برسوم الخصب..

الخميرة التي تنقلت عبر العصور بين أيدي النساء في ليالي الأعراس ومهرجانات الخصوبة وأوان الحصاد والولادات وأيام الطوفان أو في نهارات مقاومة الغزاة حيث كانت النساء تخبئ جذوة نار الموقد لكي لا تخبو وتخفي خميرة الخبز في خوابي محفوظة داخل المعابد، لئلا يدنسها عدو فيفسد خبز السنين القادمات..

(2)

وديان من الظلمات تتوالد في المدينة عندما لا تكون هناك كهرباء في معظم الليالي..

وفي هذه العتمات تتبدل حيوات الناس مثلما تتبدل الكثبان الرملية في عاصفة ليل وتزحف إلى الجهات، تتغير المصائر وتتهاوى أشياء وتتبدد أخرى..

في عزلتها وهي تجلس محنية الظهر أمام قدح شاي إزاء النافذة ولا يضيء الغرفة غير فانوس نفطي صغير تسمع صداح أغنية حب لفيروز.. يغمرها الصوت المطري الهارب من فراديس الأمس بالندى ترتجف بالحنين وتبدو الحروب كأنها لم توجد قط في هذا العالم.. وما عبرت نيرانها على جباه المدن الغافية ولا أطبقت مخالبها على عنق الزمان..

تردد مع فيروز.....

رجعت في المساء كالقمر المهاجر
حقولك السماء حصانك البيادر..
أنا نسيت وجهي.. تركته يسافر
سافرت البحار لم تأخذ السفينة

وأنت كالنهار تشرق في المدينة
والريح تبكي في ساحتي الحزينة..
من أين يأتي الطيف الذي يدحض ليلها والأحزان...؟
وبحضور الليل والأسماء والعناصر
أعلن حبي لك واتحادي بحزن عينيك
.....
وينزل المساء .....

لا تتساءل حياة فالأغنية تدور في ذاكرة الروح... وتتماوج كل ليلة، هنا كانا يسمعان معاً وهنا كانت تهب عليهما رسالة السلام بصوت الغيوم والأمطار والريح الذي يتمازج مع صوت البهية فيروز...

يخيل لحياة أن الجوع تراجع إلى مغارات النسيان وأن صداح فيروز يزيح ساعة يعلو عقبات الضنك ويروي الوقت بنبع من الصلوات البهية مشرعاً نوافذ الليل على فجر ضوئي يهدئ أوجاع الفقدان..

يحدث ذلك لبرهة وجدٍ أو ساعة إشراق..

من أين يأتي الصوت الماطر في هذا الليل...؟

عندما تضاء المدينة، وتعود الحياة إلى واقعيتها.. تعرف حياة أنها لا تزال جالسة هناك أمام النافذة وجسدها يرتعد في انفعال الشوق والبرد..

تسمع أنين روحها يعلو....

تسمع:

سافرت البحار لم تأخذ السفينة

والريح تبكي.. تبكي في ساحتي الحزينة..

كان وجهها الجميل قد مسه الهزال وسكنت ريح الحزن في ساحته... ترتعد يخفق في جوانحها ذلك الحب الذي ما سكن يوماً للرجل الغائب...

أين أنت..؟ ماذا يؤلمك..؟

ما الذي تفكر فيه..؟

ما الذي تحلم به؟ تخشى أن نضيع منك أنا وميساء؟... لا.. لا تفكر حتى بهذا سننتظرك حتى نهاية العالم... لك أن تطمئن أينما كنت... أينما كنت..

وخزة ألم تمر في جنبها مثل سلك كهرباء.. ويصل الألم إلى عنقها.. ويتوضع في جانب رأسها.. تخاف أن تصاب بمرض من هذه الأمراض التي ابتكرتها الحرب لناس البلاد.. تخشى أن تموت قبل أن.....

لا.. ستصلي ليل نهار لكي تحفظ روحها في سلام العافية.. حتى يعود.. وسوف تبقى هكذا تحدق بالليل وهي ترنو إلى وجهها تصحبها فيروز كلما اعتراها الشجن في وحشة الصمت..

في أول الليل وآخره.. تتوالد الأحزان من بذرة الأحزان وتكبر خلال النهار.. تنمو الشمس وتورق تحت هبوب النسائم والمرأة ترسل عيون الفؤاد إلى سماوات الله تتعلق ببزوغ نجمة أو ترنو إلى إشراقة هلال..

أعمال كثيرة عليها أن تنجزها خلال الليل، ترفو سترة صوف هاجمها العث، وتكوي ثياب ميساء..

تهب ميساء من نومة قصيرة..

ـ أمي.. ماذا تفعلين؟

ـ انظري... ألا تبدو جديدة؟ ألا تعجبك هذه الحاشية من نسيج الصوف؟

سترتدينها في الغد.. ستبدو جديدة تماماً.. هيا جربيها.. هيا

تقبلها الفتاة وتسند وجهها إلى خدها البارد..

ـ لا تهتمي.. سنقاوم يا ابنتي.. سنجد كل يوم طريقة لنبقى على قيد الحياة..

لا تبكي.. ـ عيب..

كم مرة رددتها لك.. هذا قدرنا ونحن أفضل ألف مرة من غيرنا.. في الأقل لدينا أمل بعودته.. وعلينا أن نحمي نعمة الحياة التي وهبت لنا.. لا تبكي.. ـ أنت قوية وأنا أستمد قوتي منك يا حلوتي الصغيرة...

تعرف حياة أنها لا تردد هذه الكلمات لابنتها بقدر ما كانت تحاول التماسك وقد أضناها الجهاد اليومي في حياتها الحافلة بالتعب..

وعندما يداهمها الوهن وتخشى من انهيار مقاومتها. ترددها بصوت مرتفع لتسمع الجدران وأشجار حديقتها وعشب الصباح.. تريد أن تشاركها أشياء البيت في وقفتها وتسندها..

بعد سنوات عندما تكبر ميساء ويهجرها (زياد) إلى بلد بعيد، سوف تستعيد حياة ذكرى هذه الليالي وأغنية فيروز والكلمات التي كانت تتكئ عليها في لحظات الضعف الإنساني.. وسوف تردد في أمْسِيَةِ الغد كلها..

الريح تبكي... تبكي في ساحتي الحزينة..

.....

(3)

تحتفظ حياة طوال السنوات بمقاومة عجيبة إزاء الشائعة، إزاء الأشياء المتداولة لا تؤمن إلا بما تختبره نفسها وتجده مناسباً لحياتها..

شائعات تتطاير في أنهر الحصار عن معجزات تظهر..

يتحدث الرجال والنساء في أَمْسِيَةِ ضجرهم وهم ينتظرون اجتماعات مجلس الأمن لتقرير شيءٍ ما بخصوص الحصار، عن ظهور أثيري للعذراء في كنيسة قرب أربيل..

أو يتناقلون أخباراً عن نساء أو رجال لديهم قدرات خارقة في هذه المدينة أو تلك في المدرسة تسمع حياة من المدرسات عن امرأة تعيش في قرية منسية بين وادي الثرثار والبادية الغريبة لديها قدرات فاقت كل من عداها وهي تشفي المرض وتفك السحر وتقرأ الطالع..

وسمعت أن الناس بدؤوا يتوافدون على القرية من أنحاء البلاد محملين بالعطايا والهبات أموالاً وذبائح وهدايا ثمينة..

ولكثرة ما شفى من المرضى بيديها تزاحم المرضى على القرية ولم يعد هناك متسع لهم فقام أحد سكان القرية بتوسيع بيته وأضاف غرفاً صغيرة في حوش الدار وجعلها نزلاً أو أشبه بخان المسافرين في القرون الماضية، كما تطلب ذلك افتتاح مطاعم للمشويات ومقاه تلبي حاجات الزوار..

وخصص أحد متعهدي النقل خطوط سيارات بين منطقة العلاوي في كرخ بغداد وبين القرية أسماها خط (أم حمزة)..

وتداول الناس أحاديث عن وجود بئر قديمة في بيت (أم حمزة) تفجرت بمياه عذبة بظهور رؤيا لشيخ صالح أخبر المرأة بأن مياه البئر قادرة على شفاء المرضى..

عصر يوم خميس قبل أن تذهب حياة إلى مشغل (أم نور) طرق الباب ضيوف من أهل زوجها قادمين من البصرة. الجدة الكبيرة أم غالب وابنتها أنيسة وابنها الأصغر مهدي..

حضورهم المفاجئ لم يدهش حياة إنما أسعد ميساء التي ازدهرت أفراحها بوجود أهل وأقارب يشاركونها لوعة انتظار الغائب.

إحتضنتها الجدة ونشجت، عانقتها أنيسة التي بدت محمومة وقد أحيطت

عيناها بهالات بنفسجية، قبلها عمها مهدي وشاكسها، وانتهز انشغال أنيسة وأمه بالحديث مع ميساء عن مدرستها ولحق بحياة في المطبخ..

قال لها:

أنيسة مريضة ولا يرجى لها شفاء.. لم يتبق أمامنا سوى القبول بالعلاج الكيماوي، هي تجهل علتها المميتة، لم نخبرها أن السرطان تفشى في كبدها وجهازها اللمفاوي ورأينا أن نستنفذ كل وسائل العلاج حتى لا نندم ويلوم أحدنا الآخر... نريد أن نأخذها إلى (أم حمزة).

ـ أحقاً؟.... أنت تقول هذا؟
ـ لم لا؟... قد يحدث شيء.. ألا تؤمنين بالمعجزات؟... لا أريدها أن تفقد الأمل..
ـ متى حدث ذلك.. متى بدأ المرض؟
ـ منذ أشهر، قال أطباء البصرة إنها تعرضت لقدر كبير من الإشعاع حين قصف المستشفى الذي تعمل في مختبره..
ـ ولماذا لم تخبروني...ـ لماذا؟
ـ يكفيك ما لديك..
ـ وكيف تدبرتم أمر العلاج؟
ـ تعلمين أن أنيسة اشترت بميراث والدنا ذهباً.. نبيع كل فترة قطعة منه..

تعرف حياة أن والد غالب كان يعمل في تجارة الصوف بين بغداد وبلدات الشمال يبادل نسيج شعر الماعز ببالات الصوف المجزوز ويشتري اللباد الجبلي بعباءات النجف وأبسطة السماوة، تاجر جوال كتجار الخمسينيات.ـ وعندما نمت الثروة بين يديه افتتح محلاً في شارع الرشيد لتجارة الأقمشة الرجالية المستوردة من بريطانيا.. بينما أنشأ شقيقاه معملاً للصابون وفي الستينيات شيد هذا البيت الذي كان الجميع يقيمون فيه، ولكن عند نهاية الستينيات أفلس معمل الصابون فباعه الشقيقان ورحلا إلى البصرة وافتتحا محلاً لتجارة التوابل في سوق الهنود.

في السبعينيات تبدلت أحوال التجارة وتغير كل شيء... وحل الكساد بتجارة الأقمشة المستوردة عندها مرض والد غالب مرضه الأخير ورحل وباع الورثة المحل ووزعوا الإرث بين غالب ومهدي وأنيسة وأمهم واشترى غالب نصيب الآخرين في البيت الذي تزوجها فيه بعد سنوات.

تقول حياة وهي تسكب الشاي في الأستكانات ذات الحواف المذهبة:

ـ في الأقل كنت سأبحث لها عن طبيب مقتدر هنا..
ـ لم يتبق أمامنا غير هذه المرأة والعلاج الكيماوي.. أرجوك حياة.. لا تظهري أمامها اهتماما زائداً بمرضها، لقد أخبرها الطبيب أنها مصابة بالتهاب الكبد الفيروسي الذي يستلزم فترة علاج طويلة..
ـ هل اقتنعت بما قيل لها؟
ـ حتى هذه اللحظة...ـ أظنها مقتنعة..
.....

عندما سألت حياة في المدرسة عن أخبار المرأة الشافية (أم حمزة) أخبروها أنها ماتت مقتولة في بيتها منذ أشهر... ويقال إن أحد أبناء أخيها وكان يساعدها في شؤون شفاء المرضى يقيم في (حي البياع) ويبيع مياه البئر الشافية في

زجاجات..

ـ أيعرف أحد عنوانه؟

ـ لا أحد يعرفه.. يقال إنه يتكتم على تجارته، يخشى أن يلاحق بتهمة الشعوذة.

.....

كانت أنيسة نائمة وقد ضمت ساقيها ووضعت ركبتها قرب صدرها بينما امتدت ذراعها خارج السرير، ترقبها حياة وهي تلتم وتتكور مثل طفل جنيني.

تسمع انطباق الباب فتعرف أن مهدي قد خرج..

تلمس جبين أنيسة الملتهب وذراعها، ترى الثياب ملتصقة بجسدها وقد تشربت عرق ليل الحمى بطوله..

تغير لها حياة ثيابها، وتقدم لها إفطارها..

تقول الجدة التي لم يغمض لها جفن طوال الليل:

ـ ابنتي حياة لا تنسي أن تعطيها دواءها...

عندما تعود ميساء وحياة من المدرسة يكون مهدي قد عاد وجلس يروي لأمه وأخته مغامراته في البحث عن الرجل بائع المياه الشافية:

ـ سألت عنه في شارع عشرين، طرقت أبواب بيوت وسألت حلاقين، وجلست في مقهى واستعلمت من صانع المقهى قيل لي اسأل المضمد (أبو عقيل) ولم أعثر على شيء، نصحني بائع الثياب المستعملة وهو يساوم امرأتين على ثمن سروال لطفلة:

ـ اذهب واسأل مصلح الراديوات (حميد لا سلكي)..

يجد محل (حميد لا سلكي) مغلقاً فيدله الأولاد على بيته في الزقاق الجانبي الموحل الذي تفوح منه رائحة نتنة وقد تناثرت على جانبيه أحشاء السمك والخضار المتعفنة..

يطرق الباب.. فيخرج رجل بدين بشاربين متهدلين

ـ مرحبا سيد حميد.ـ

ـ أهلاً

ـ تعرف.. هذا الرجل.. الذي.. يعني..ـ يبيع ماء البئر...

ـ ابن أخ المرحومة (أم حمزة)؟

ـ نعم هو..

ـ بابا روح لا تسأل عليه.. أخذته الشرطة قبل يومين.. اتهموه بقتل عمته.. كان يسكن هنا عندي.. أكرمناه واحترمناه.. تبين أن الرجل هارب... الله سترنا أنا وأهلي الحمد لله ما جرجرونا بالمخافر والتحقيقات..

روح بابا.. استر علينا... الله يستر عليك..

.....

(4)

في حديقة حياة تنحني أنيسة متحاملة على آلامها وتجمع أوراق التين الصفراء وأوراق الكمثرى التي اكتسبت لون الجمر واللهب، تفرش الأوراق على منضدة صغيرة وتتألم.. تجتاحها موجة ألم تشمل جسمها كله، العظام والعنق والمفاصل والجلد والروح قبل كل شيء..

تحضر لها حياة إفطارها.. تقترب قطة رمادية صفراء العينين منها، تلقي لها بقطعة خبز.. تنظر القطة نظرة امتنان لكنها لا تقترب من أنيسة.. بل تتراجع خائفة...

تحدس حياة أن الحيوانات ترى الألم لدى الإنسان.. ترى لون الألم يحيط به مثل هالة.. تدرك الحيوانات ما يجول في الأجساد القريبة منها، أو أنها ترى شبح الموت فتهرب..

تجلس أنيسة تحت شجرة التين حيث وضعت حياة كرسيين من حديد أبيض وطاولة صغيرة..

عصافير الصباح تتقافز بعيداً عن القطط المتربصة، تغمض أنيسة عينيها فقد انزاح ظل الشجرة عن وجهها وانهمر ضوء الشمس قاطعاً مثل شفرة...

تبتسم أنيسة، ترى حياة الابتسامة، أم تراها تتوجع وهي تكز على ملامحها فتبدو كالمبتسمة... ربما كانت تبتسم حقيقة لخاطرة مرت بذهنها..

تدخل حياة إلى البيت وتتركها في الحديقة...

تتأملها من خلال النافذة محاطة بالظلال وبقع الضوء وهي في ثوبها الأبيض المنقط بلون مائي خفيف... نفحات هواء الصباح تحرك خصلات شعرها الكستنائي الطويل المتناثر حول وجهها.. تراها أشبه بصورة من صور النساء الشفافة التي يعلقونها وراء واجهات الزجاج، حلمية، ناعمة، تبدو كأنها ذات بعد واحد.. مسطحة وشفافة جداً.. لا يمكن أن تكون حقيقية أبداً..

حضور شبحي زائل ومفعم بالسحر الذي يبثه شباب أنيسة حولها برغم المرض.. تراها حياة بالغة الجمال في حديقتها، زهرة برتقال فواحة.. جزء لا يتجزأ من الطبيعة المحيطة بها...

كيف ستنبؤها بما لم يجرؤ عليه أخوها أو أمها... من أين لها تلك القوة والقسوة لتقول لها:

أنت تمضين إلى الموت..

من أين تسلل الموت إلى شبابها؟

تعرف حياة، وتعرف أنيسة أنهم يقتلون أناس هذه البلاد بطرق مختلفة، ليس بالإشعاع وحده يموت الناس.. هناك من يموتون لفرط اليأس من عودة الغائبين، هناك من يموتون انتحاراً باختيار أوطان بديلة لن تكون لهم مهما حاولوا أن يكونوا لها..

كيف ستقول لها:

عليك أن تخضعي للعلاج الكيماوي؟
تسأل الجدة... لماذا لم تخبروها من البداية؟
ـ خفنا أن تنهار، ثم قلنا ربما أخطأ الأطباء فلننتظر ظهور الفحوصات.. ثم عجزنا عن مواجهتها بالأمر....
تخرج إليها حياة:
عزيزتي أنيسة.. أريد أن نتحدث قليلاً منذ زمن لم نتحدث..ـ
تنظر أنيسة إلى عينيها وتستطلع ما تريد قوله،
ـ أعرف... أعرف ما يجول بخاطرك.. أتظنيني لا أعرف ما بي؟
ـ أنيسة..
ـ وفري على نفسك هذه المشقة، سأقبل وسأعالج نفسي ولكن لا تتخلي عني..
ـ كيف عرفت..؟
ـ وكيف لا أعرف وأنا التي رأت مئات الحالات أمامها تأتي إلى مختبرات المستشفى كيف لا أعرف يا حياة..
ـ ولكن...
ـ أهلي.. أليس هذا ما تريدين معرفته؟.. جاريتهم في الأكذوبة.. ولم أترك لنفسي فرصة مقاومة المرض بطريقتي.. كان خطئي أيضاً أن أجاريهم في اللعبة..
ـ إذن ستبدئين في العلاج؟
ـ من الغد، شرط أن ترافقيني إلى الطبيب ليحدد الجرعات..
.....
تجد حياة مسوغاً لكل ما يحدث وتستعد دوماً لمواجهة أي طارئ، ثم تغدق حنانها على الذين يطفون في مياه المأساة...
تكتشف معان جديدة لوجودها، أسباباً أخرى للتشبث بالحياة من أجل هؤلاء جميعاً... ومن أجل نفسها..
تعرف قدرتها على العمل بصمت، دونما تذمر دونما جنوح إلى الاستعراض الرثائي الذي تمارسه كثير من النساء في مثل وضعها..
تقاوم في الصمت المجايد، تعمل في الصمت المشحون بالعواطف.. وتتغاضى عن أشياء كثيرة..
تنطلق في الصمت عندما لا يعود الكلام مجدياً.. هكذا تقود خطى الزمان إلى حيث تشاء هي قدر ما تستطيع وتلوي عنق الغضب.. لا تغضب أبداً.. لا تغضب حياة..
لن تكون أكثر أو أقل مما هي عليه، إنها هكذا ولن تكون مدينة لأحد بشيء وليسوا مدينين لها..
كل ما في الأمر أنها حتى هذه اللحظة تستطيع فعل أشياء جديدة لنفسها ولمن حولها.. ماذا ستفعل إزاء الذي يتبدل في

أنيسة؟

هاهو المرض يعلن عن نفسه بوقاحة صفراء، يغير ملامحها يساقط جزءاً كبيراً من شعرها الجميل وشعر حاجبيها.. ويذبل الجسد، يذوي كأنه ليمونة عصرت وما تبقى منها سوى القشرة..

تبتسم أنيسة وهي مستلقية تنظر بعينين غريبتين إلى حياة وكأنها تقول لها:

ـ أرأيت، ها أن الحياة تتسرب من أصابعي وشعري وجلدي.. أرأيت..؟

ـ لا تبالغي.. هيا.. أريدك أن تخرجي إلى الحديقة الجو دافئ، وقد امتلأ الهواء بروائح طيبة.. هيا

تقود خطاها المترنحة، تجلسها هناك حيث سبقتهما الجدة إلى الحديقة وهيأت الشاي والكعك..

تلاحظ أنيسة الغيوم المسرعة تتراكض في السماء... تهب نسمة وتحرك كتل المتسلقات المغبرة ويصلها فوح خفيف..

تنظر عند قدميها، البراعم الصغيرة المستدقة تتفتح ببطء في الشمس حاملة سر حياتها مثلما يحمل الطائر سر الطيران في جناحيه المضمومين قبل أن يحلق.. إلا هي فإنها تحمل سراً آخر.. تسمع شيئاً ما.. تحس خريراً خفياً يتدفق في أعماقها.. تكاد لا تصدق..

-حياة أمسكي يدي.. لقد زالت الحمى.. أنا اليوم أحسن حالاً من الأمس. أجدني أقوى.. أستطيع الآن السير بدون ألم..

تعانقها حياة.. لكنها تشم تلك الرائحة الغريبة.. رائحة تحلل الخلايا التي تتصاعد من عضو ميت، أو شجرة تعفنت...

-ألم أقل لك... ستتعافين يا أنيسة..

تسير أنيسة، تحاول أن تبدو ثابتة الخطى منتصبة القامة.. تسمع رفيف أجنحة العصافير وخفق الفراشات حول وجهها.. تنحني لتقطف زهرة نجمية رأتها تلتمع بين العشب النضر..

لكن بعد برهة يستفيق الوحش المتمدد في الخلايا ويصرخ الألم، تقاومه.. تحدق بالضوء.. تمد يديها للشمس، تريد لوجودها أن يتشرب جزيئات الضوء وتعود الحمى.. حرارة تجتاح جسدها كله.. يلامس النسيم الندي وجهها المحموم تحس اتساع روحها وخفة الجسد.. تراها حياة كما لم ترها من قبل...

يخبرهم الطبيب مساء ذلك اليوم أنها بوادر استجابة الجسم للعلاج... قد تبدأ المعجزة....

أحياناً تنحرف المعجزات عن طريقها وتذهب إلى جهات أخرى...

وفي مرات قليلة تحدث معجزات لمن لا يتوقعها.. تعرف حياة ذلك وهي ترى مفاجآت الطبيعة حين تخضر سعفات النخلة المتيبسة فجأة وتعلن عن معاندة الموت لتساند حياة في جهدها اليومي الصامت وتعلمها المزيد عن مقاومة الأشياء لحتمية

الانجراف في الفناء الكبير..

علامة صغيرة من الأرض أو السماء قد تغير فكرة الإنسان عن الزمن، والموت والحياة..ـ

بخبرة حياة الطويلة مع الحديقة والنباتات.. مع الطالبات الصغيرات المتفتحات، مع ابنتها..ـ

تعرف أن السكون شيء مريب، وأن الحركة في الكائنات كلها تعني إمكانية المضي إلى الأمام مما يتطابق مع فكرتها..

-يجب على الإنسان أن يمضي قدماً... أن يتجه دوماً إلى الأمام فلا مجال للتراجع..

الروح هي التي تسيّر كل شيء إن أتيح لها الكشف عن سرها...

هي التي تديم سلام الوجود لو أطلقناها من أغلال الجسد ومن مغالطاتنا..

ماذا لو حرر كل إنسان روحه من المخاوف الصغيرة وركام الأفكار النهائية..

تؤمن حياة أن الروح هي التي تأخذ بيد الإنسان إلى مرتقيات الرؤيا والشفاء وإن باستدراج النهاية..

أنيسة... أنيسة... تبدو لها روحاً تكافح الموت..ـ لا تستسلم بيسر، جلدها الناعم يتحول إلى لون التراب. عيناها تذبلان ولا يعود يظهر فيهما ألق الأمنيات. تبدو في مجاهدتها وقد نسيت معنى الزمن وهربت من الأمكنة كلها...

أوراقها تتكاثر وتنتشي في غير مواضعها كما تنمو الكراهية في روح الإنسان فتحيلها إلى رماد وطين...

ماذا سترى لحظة النهاية؟... حين تنطفئ الروح وهي لم تمسك بأمنية واحدة ولم تعرف هناءات الحب وشقاء الحرمان... لعلها عرفت، إنها تتنهد تنهدات الحرمان كلما اختلت بنفسها وتحدق بشيء ما في الفراغ... لعله وجه رجل أحبته وخذلها... لا... إنها تجاهد وترسل روحها صوب ضفة الحياة... عيناها تلاحقان الرغبة كأنها قمر من ماء يتدلى فوقها ويمطرها بالعرق...

تعرف حياة كيف يتحرك المرض في جسد الفتاة وكيف تلتهم الأورام الخلايا واللمف وأحلامها وأنيسة لا تسمع كلمات العزاء والتشجيع التي أصبحت مملة مثل نشيد مدرسي..ـ

لا تريد أن تسمع فالنهر يغرقها ويسحبها إلى الأعماق، عيناها شاخصتان ويداها تعتصران الغطاء ورائحة أشجار الحديقة تنهمر على الغرفة، عطر ورد العسل شهي حلوي طوف في الجو ويبدد رائحة العرق المالح الذي يتبخر من جسد المريضة المتحلل..

تقشر حياة برتقالة، تفصصها وتضع الفصوص اللامعة في فم

أنيسة الذي ما عاد يميز بين مذاقات الأشياء..

عيناها تتوسلان.. دعيني.. ابتعدي.. دعوني لا أريد شيئاً...

حياة تحملها بين ذراعيها بعد أن غدا جسدها كيس عظام صغير، بحذر ترفعها كأنها رضيع هش العظام وتغسل لها ما تبقى من شعرها الجميل وتدعك جسدها برفق بماء ساخن عطرته بورق النارنج وماء الورد.. تطهر ثنيات المفاصل التي توطنت فيها بكتريا العرق... تمسح العنق والصدر والكتفين...

وأنيسة مغمضة العينين، شفتاها ترتعشان وهي تطلق أنيناً متقطعاً، ولون وجهها شمع أصفر يسيل إلى أعماق الأرض أو يتصاعد إلى الأعالي... تدهن حياة جلدها الذي تغضن بزيت اللوز وتدعها لتغفو بمنومات ومسكنات، في انتظار معجزة قد لا تخطئ السبيل إلى جسدها.

(5)

كما ينث المطر الناعم على الوجه شهياً يبعث الري في الجسد كله، تتعالى نغمة صادحة من كمان ميساء فتجعل الليل الخامد بهياً، والعالم مكاناً آمناً، يتيح للنساء أن يحلمن بحياة حقيقية، يعثرن فيها على حب حقيقي منزه عن الأغراض ويلتقين برجال حقيقيين لم يعبروا طوق النار الذي ترك سحجات حريق على أرواحهم وثقوباً سوداء في أفئدتهم..

تسحب النغمة الشجية تعب الحياة من جسد حياة، وتمحو عن وجنتيها ملح الدموع المؤبدة.. وأنئذ سوف تنظر إلى رحابة العالم وتناجي شجرة التين الضخمة بجذعها الفضي وتحاورها كما تحاور صديقة قديمة...

تستمع إلى أنينها الأخضر الذي يتناغم مع سحبة القوس على أوتار الكمان..

تغير ميساء النغمة مثلما علمتها (ست غادة) مدرسة الموسيقى التي تعطيها درسين أسبوعياً لتحقق لحياة حلم زوجها المفقود: أن تصبح ميساء عازفة كمان شهيرة تقدم حفلاتها على مسرح قاعة الرباط في شارع المغرب ببغداد..

تتمدد النغمات في الهواء وتغير ألوانه، تطير حتى تلامس جذور الغيم وحياة تنصت بالحواس أجمعها وهي لا تعرف عن الموسيقى إلا تجربة السماع التي تحولت لطول ما دربت نفسها فيها إلى صعود صوفي وغالب يسمعها أشرطة لمؤلفات ومقطوعات شجية لغانم حداد البغدادي ولمراد أورهان التركي وباغانيني الإيطالي..

عن طريق السماع الذي تتسامى فيه الروح في مواجد وحالات، أحبت غالب أكثر في الموسيقى..

عشقته أعمق وتفانى أحدهما في الآخر واكتشفا معاً الدرب الضوئي الصاعد إلى السماء...

في عيد ميلاد ميساء الرابع عشر حصلت على الكمان، باعت حياة أقراطاً ذهبية مع سلسلة تتدلى منها سمكة بحراشف متحركة ملونة بالمينا وطلبت من (غادة) أن تختار لميساء الكمان المناسب..

وكلما توغلت حياة في سماع تدريبات ابنتها كلما انطشت نقاط الضوء على العالم الذي استغرقته القسوة والدماء فتملؤه أقماراً وموجات بحر وعندما ينتهي العزف تكون حياة قد دخلت مقام البكاء...

الآن وميساء في الرابعة والعشرين لديها ست سيدات وفتيات تعلمهن الموسيقى.

تعزف كونسرتو الكمان لمندلسون، بعد أن انتظمت في دراسات مسائية في معهد الموسيقى وتجرب أن تؤلف قطعة موسيقية تسكن خلجاتها وعقلها منذ أعوام بعيدة لتقدمها هدية للأب في حفلتها الأولى التي حلم بها على مسرح الرباط..

.....

تنظر النساء إلى حياة وابنتها ويتمتمن...

-امرأة بطرة... تعلم ابنتها الموسيقى وهي تكدح ليل نهار..

-تريد لها أن تعمل عازفة في فرقة التلفزيون..

-لا.. لا.. تقول أنها ستعزف في الفرق الكبيرة السمفونية..

-من سيجرؤ ويتزوج فتاة مثلها..! عازفة موسيقى!

-لو فكر ابني بمثل هذا لنفيته إلى الدنيا، بنت وتعزف الموسيقى؟

-ابنتها وهي حرة فيما تفعله لها.. حتى لو دمرت مستقبلها العائلي هي التي تتحمل وزر عانس سيهرب منها الرجال..

بارعات في الإدانة... ماهرات في سوء الفهم... تعرف حياة أنها مهما فعلت فسوف يبحثن عن مثلبة يحاكمنها بها، ويتسقطن لها الهفوات..

لكنها لا تبالي.. بم تبالي وهي تعرف ما تريد وتفعل ما تريده لأنها تعرفه وتؤمن به...

مرات، ضيعت وقتها في توضيح رؤيتها لنفسها ورؤيتها للنساء... وضعتهن أمام حقيقتهن التي يجهلنها أو يتجاهلنها فلم يجرؤن بعد ذلك على مواجهتها..

تتهامس النساء:

-أهل زوجها قاطعوها بسبب البنت والموسيقى..

-لا أحد من الأقارب يزورها..

-نبذها الجميع عندما رفضت طلب قريب لها بالزواج منها..

-كيف تتزوج ولم تتحقق من موت زوجها؟

-وكيف تبقى وحيدة مع ابنتها دون ولي أمر؟

-من يتولى أمرهما؟ شقيق زوجها الذي لا عمل لـه ويعيش

عالة على زوجته وأمه؟..

-أم أخيها المعوق الذي تعمل ابنته وزوجته لإعالته؟

-النساء يقمن بإعالة الكثير من الرجال في هذا الزمان...

تعرف حياة ولعلها حفظت في ذاكرة حواسها، أن العشب والأشجار وجميع نباتات حديقتها تستفيق مثلها قبل بزوغ الشمس وتنشر عبق الأرض وفوح الشذا وأسرار الديمومة عندما يلامسها أول شعاع من الشمس...

لكل الأشياء حيواتها ولكل الكائنات أرواحها، تذكر أنها ذات فجر خرجت إلى الحديقة بعد أن أعدت الخبز أيام الغارات.. وقطفت قبضة عشب طري فاحست أن روح العشب تعانق روحها وتطلق من أعماقها صورتها الأبدية، صورة المرأة التي لا يقف أمام قوتها شيء.. شذا العشب يفتح في أعماقها الأبواب لتنطلق الروح الإنسانية وتعلو وتعلو حتى تهيمن على الليل وتسحب الشمس من مكمنها وتطلق الحياة في الحياة قبل أوانها أو ربما في أوانها المناسب..

تلك الليلة وفي الليلة السابقة لم تقم الطائرات المعادية بغارات جديدة على بغداد والمدن الأخرى.. بدا أن نوعاً من هدنة غير معلنة قد بدأت لكنهم لم يركنوا إلى الطمأنينة بل استفادوا من الوقت لتعزيز استعداداتهم.. حصلوا على المزيد من مياه الشرب وبعض خزين الطعام من بقول ومعلبات وشاي وتمر وتهيأوا للجولة التالية...

وهي في هذا الانسحار الذي يتملكها إزاء الطبيعة وهذه الصلة التي تشدها إلى عمق الأشياء الحية تتمتم بشيء هو كالصلاة، تمجد هذا الفيض السماوي المتدفق ما بين روح الإنسان والحيوات الأخرى.. تهمس بلغة تستجيب لها النبتة ويدركها البرعم ويحسها الطائر..

(6)

وبهذه التجليات التي تمر بها تمسك الزمن من أعنته وتقوده إلى حيث تشاء وإن تطلب ذلك عناء ومكابدة...

هي تحب هذا التحدي.. تريد أن تكون كل صباح كما تتمنى أن تكون تمضي قدماً، لا مجال للتراجع.. ولن تطلب عوناً من أحد.. بوسع المرأة أن تكون مجموع كائنات وبإمكانها أن تدير الحياة وتوجهها... هي عون نفسها التي تراها مرايا حلمها...

تنحني على الأرض.. تقطع عشبة ذات أوراق مسننة لها زهور صفراء شذية، مجهولة الاسم، لكن الشذى يبوح بسرها وجمالها..

تسمع صوت امرأة ينادي..

-ست حياة صباح الخير..

تفلت من ذلك الانسحار والتوحد مع الشذى وهمس الرياح وطراوة العشب..

ترى جارتها خلود، تطل برأسها من السياج الذي يفصل بين الحديقتين..

-صباح الخير أم زياد.. كنت أظن أنني الوحيدة التي تصحو قبل الفجر..

-الغارات.. لم نستطع النوم طوال الليالي الماضيات... البنتان ترتجفان ولا تنامان وهشام وزياد يمضيان الليل في سماع الأخبار ولعب الشطرنج.. لا شيء نفعله.. في النهار ننام قليلاً..

-منذ يومين لم تعد الطائرات... لعلها..

-هشام يقول: إنهم يهيئون لهجوم أكبر حسب تحليلات الأخبار..

-قد ينتهي القصف من يدري..؟

-لا أحد يعرف.. بقينا وحدنا في هذا الشارع أنت ونحن فقط نحرس بيوت الجوار..

-هل رحل آخرون أيضاً..؟

-كلهم غادروا بغداد.. خلت البيوت.. خرجوا في الليل.. ذهبت أمل ومعها أبناؤها الثلاثة وزوجها إلى الشمال وذهبت عائلة باسمة إلى النجف.. تركوا مفاتيح بيوتهم لدينا.. ست حياة ستبقين أيضاً نحن باقون..

-مهما حدث أنا باقية، أين نذهب؟ ولماذا؟

-تقول سعاد.. أنتم مجانين، اهربوا بأرواحكم من الموت.. ما الذي يبقيكم هنا؟

-كل لـه جنونه.. فليكن لنا جنوننا أيضاً..

تذكر حياة هذا الحديث الذي مرت عليه اثنتا عشرة سنة، تذكر رتل السيارات التي هجت من بغداد عند ابتداء القصف.. كان الناس يلوذون بمباني المدارس والمساجد والأضرحة المقدسة..

لجأ بعضهم إلى مضارب القبائل في البادية..

كانت حياة تراهم.. يغادرون البيوت.. يسيرون في الزمن ولا يرتحلون في المكان.. الأمكنة متماثلة تحت الريح والمطر والخوف يسيرون دون بوصلة:

تتساءل حياة:

كيف بوسع الإنسان أن يذهب ولا يعود...؟

بعضهم كان مستعداً لدفع نصف عمره مقابل أن ينأى عن الموت.. ولكن.. تقول حياة.. ماذا سيفعل بالنصف المتبقي من العمر؟

لا أحد يدري... لا أحد يريد أن يعرف... كل ما يريدون معرفته هو ما الذي سيحدث في اللحظة التالية..

يمضون إلى الجهات ويتفرقون عن بغداد شعاعات ضوء هاربة ترتعش وكلما توغلت في المسير تنطفئ حتى يختفي آخر فيض من أضواء النفس..

يسيرون إلى قرى مجهولة، وبيوت لم يألفوها، وسوف تنكرها أرواحهم وتتعذب بها أجسادهم التي لن تتواءم مع رائحة تلك البيوت وزواياها وعتمتها.

سيتوجب عليهم أن يغيروا عاداتهم وألفاظهم وطريقة ارتدائهم لملابسهم وربما يستبدلون أسماءهم لتتقبلهم المتاهات التي سيغيرونها كل يوم..

قوافل الهاربين تتقاسم الجوع والمخاوف والمعلومات...

امرأة يجيئها المخاض على الطريق، أخرى تحاصرها نوبة ربو، شيخ تداهمه نوبة قلبية.. يمشون والموت يرافقهم.. قلق أيامهم ينمو على وقع خطاهم وهدير المركبات.. يبقون على قيد الرحيل والخوف يتسع.. هل سيعودون؟

لا أحد يدعي امتلاك الجواب...

حقول الشعير تتماوج على الطرقات، السنابل تنحني بثقل حبوبها تحت الريح، ومن وراء الحقول تخوم من شجر غامض تمتد وراءها البراري، بعض البنات ينتحبن بصمت في السيارات، إحداهن تريد العودة إلى بغداد لأنها تركت مستقبلها معلقاً فوق نافذة، فتاة أخرى تريد أن تعود لأنها لم تودع حبيبها، ثالثة نسيت دفتر مذكراتها وفيه أسرار القلب واعترافات ستفضي إلى فضيحة لو عثر أحدهم عليه..

تبكي الأمهات تاريخ سعاداتهن الذي كتبته الأعوام على صدوع الجدران وألوانها.. النساء الوحيدات يبكين بمرارة لأنهن يعرفن أن طعم الوحدة سيدوم العمر كله وسيحملن وطأته ولن يعوضهن الفرار ألفة أو رفقة حياة...

لا يملكون بوصلات ونجمة القطب محجوبة بالغيوم، لكنهم يسيرون.. يمضون قدماً ولكن لا يعرفون إلى أين يتجه بهم المصير..

يبصر البعض سرابات خلال النهار.. يرى آخرون أضواء تومض في الأفق سرعان ما تبتلعها المسافة.. يتوهمون أنهم يقتربون كلما اشتد عليهم العناء والخوف والظمأ...

يحلمون بمحطات ومطاعم ونيران تدفئهم، يمضون.. ولا يعلمون من الذي سيصل، ومن الذي سيعود.. ولم يعد لكلمة (أين) معنى، فما (الأين) إذا لم يكن المرء يعرف اتجاه المصير..؟

صاروا رهائن للخوف، رهائن للأدلاء الذين يواكبون المترحلين بين قرى الجبال...

تتجمع في الشوارع برك مياه المطر، تصير بغداد مدينة جزر وقوارب.. طوفان يعزل الأحياء ويحبس سكان البيوت في منازلهم..

يحدث أن تسمع حياة في الليل أصواتاً في ضجة المطر يتناهى إليها طرقٌ على الباب.. يحدث أيضاً أن تكون الأصوات وهماً.. المدينة والأرواح صارتا لعبة المطر..

تطل من النافذة، لا أحد.. إنها شجرة التين تضرب أذرعها على لوح خشبي وضعوه لدى السياج... تتكئ على كرسيها وهي تنصت للريح وصوت العاصفة يضرب في عراء الحديقة ويحرك الشجر وحياة ترافق ابنتي سعاد في مهاوي الجبال، ترى زينة ورانيا محمولتين بيدي رجال مسرعين فوق الثلوج...

الدم يغرق العالم، كل شيء أبيض مضرج بالدم..

الشمس الغاربة تسكب احمرار الشفق الدامي على الثلج والثلوج تسيل دماً من الأعالي..

نساء كثيرات يبكين وإحداهن تحمل طفلاً ميتاً وتركض فوق الثلوج... يأخذه منها رجلان ويدفنانه في الثلج... تقع الأم على ركبتيها وتصرخ..

ترى نفسها ثانية في حديقتها وسعاد معها تحتسيان الشاي تحت شجرة التين وتروي لها حكايات عن ابنتيها زينة ورانية، عن رعبهما من الغارات وانهيارهما...

تقول لها:

هربت بهما لأنقذ روحيهما من الرعب... ولكني وهبتهما للموت اسمعيني حياة... إثبتي.. لا تكوني مثلي.. ابقي حيث أنت... فالموت في كل الأمكنة ولا يستثني مكاناً أو أحداً...

****

<<< الفصل الثالث >>>

(1)
((من أوراق ميساء))

لا أسأل لماذا؟
وهل يعرف المرء لماذا وجدت الحياة والموت؟
أندفع للركض في دائرة مكتملة... تنبهر أنفاسي، أواصل الركض، تعيدني الدائرة إلى النقطة ذاتها...

أحاول الإفلات، لا أجد منفذاً.. أعاود الركض في الدائرة الموصدة فلا أجد أحداً كل شيء موصد.. جنون.. هذا هو الجنون.. أخاطر بكل شيء.. ولكن بماذا يخاطر الإنسان إذا كان لا يملك شيئاً؟

لدي الزمن... سأجازف به. السنوات تمضي.. أنا الآن في الرابعة والعشرين... سأجازف بالزمن.. أبدد اللحظات الثقيلة.. أبددني... أفلت من قبضة الزمن ولكن أين يمضي بي الزمن؟.. كوابيس، وعدم..

لا أملك غير قصة الحب المترنحة على حافة الهاوية.. حبي لزياد... بالأحرى حبي أنا وليس حب أي أحد.. حبي وحدي..

عامان.. نعم.. منذ عامين تخرجت في قسم الآثار... لم أكتشف غير البلايا لم أنقب في الحياة إلا على المزيد من الميتات، كل خطوة أتعثر بضريح..

مرة واحدة شاركت في عمليات التنقيب مع أساتذتي.. أطروحة التخرج كانت تقوم على تجربة العمل في موقع (أور)... هناك وجدتني أعبث بالزمن.

أستخرج دهراً.. قطعة فخار صغيرة.. وأتفرج على دهر آخر.. شظية آجر من سلالة حاكمة أرست السلام فكتب بناؤوها قصائد حب على الآجر والعمدة... السلام والحب توأمان.. كيف أقع في الحب ونحن نكابد الحرب في البر والجو والدم مفارقة.. كنت أندهش، وتنتابني رجفة الصعود إلى أعالي البهجة وأنا أمسك بيدي الشظية الناطقة بحب سومري لم يندثر.. حب ولد

في نشوة السلام..

كانوا لا يبالون بما يعتمل في أعماقي من احتدام بين أن اكتشف قصص حب غابرة وأجهل ما أحب... أجهل انعكاسات زمني على حبي، ظننت أنني أعرف ما يريده زياد، لكنني عرفت ما لا يريده..

إنه ينكر ما ينكره علانية ولا يكشف عما يريد حقيقة.. لا أبالي.. سأعرف أمي لا تغير وقفتها الليلية أمام النافذة التي صارت مفتاح دخولنا إلى ملكوت الأمل..

حياتنا، حياة أمي، وأمي حياة تبدو على شيء من الغرابة.. نعم.. لم لا؟ نحن امرأتان غريبتان على هذا العالم...

في خضم التحولات وجنوح الناس إلى تغيير مصائرهم بأسرع مما يلوح البرق حياتنا... أسلوب عيش فريد، لا يشبه أساليب عيش الناس حتى أقرب الناس معارفنا...

أمي ترفض أن يشفق علينا أحد، لا تقبل أي عون من أي قريب أو كائن... تتقبل حسب عون الطبيعة.. حنو الشجرة.. هبة العشب.. عطايا الزهرة.. خبرة أمي في مقاومة الجوع مهدت لنا سبل البقاء، البقاء دونما يأس... لا نحاول أن نستكين لخراب العالم بل نتعلم من كل شيء يذوي وكل أمر يلم بنا وبالآخرين كيف نخطو في لحظتنا التالية..

أمي... تفكك العادات الجديدة... ليست جديدة بالأحرى فقد داهمتنا منذ منتصف القرن العشرين (استثمر الآن قدراتي التاريخية)... العادات التي تسللت إلى حياتنا في الانجراف الجنوني نحو ظواهر الحضارة الآتية من هناك...

منذ طفولتي، ربما منذ زواجهما هي وأبي، كانت تحرم علينا كل ما هو مصنوع ومعلب ومستورد من غذاء... ترغمنا على القبول بأسلوبها الموروث الذي طورته ليلائم حياتنا ويعيد بناء عاداتنا...

انظر إليها.. أغبط نفسي... أم تصلح أن تكون أماً كونية للبشر والأشياء للطبيعة والمياه والتراب...

عالمنا، عالم أمي وعالمي ينبني من عواطف جياشة... تتجه بخطوط مستقيمة نحو أهدافها... لا تتراكم في طبقات كالعصور الحضارية لسومر بل تعلن عن نفسها في ظهور شمسي...

أراقبها.. وهي تشكل نهارنا من قبضة تراب في الحديقة وحبوب قمح، من حزمة عشب ونسغ شجرة... تمزج شذا الزهرة المتفتحة مع رحيق ثمرة وورقة يانعة وتقدم لي وجبة البقاء...

يخيل لي أن أمي تحبسنا في التشكل الذي أرادته لحياتنا وتصير طريقتها في العيش (بيتاً) ثانياً يبطن بيتنا... أراه في ساعات إحباطي وحزني (سجناً)... وعندما لا أجد سبيلاً للإفلات منها ومن سجنها، ألوذ بالصمت... أبدد غضبي بقراءات آثارية، بكتابة يوميات وأنام..

تحلم أمي... ربما كان حلمها جزءاً من دفاعها الحيوي عن النفس والحياة في هذه البلاد...

تحلم بعالم مختلف، وتقول لي:

-في الأقل نصحح حياتنا... نبدأ بأنفسنا... ولا نكتفي بالحلم...

تقول لي: الحياة كما أراها ليست الحياة التي تقدمها لنا الأسواق والصحف والتلفزيون.. إنها شكل آخر للوجود.. شكل بسيط وشديد الصفاء..

ولم يكن يمر يوم.. أو ساعة، دون أن تكشف لي عن أفكار جديدة لأيامنا القادمة.. علمتني كيف أواجه فاجعة رحيل عمتي أنيسة التي حملت عذابها معها ومضت...

ساندتني أمي لأتحمل استمرار غياب أبي وموت جدتي أمه...

واكتشفت سعة روحها وقدراتها العجيبة عندما دك صاروخ الحضارة بيت زياد وقتل أمه وأباه وشقيقتيه الصغيرتين وتبنت أمي الفتى وأعانته على احتمال البلاء... ومواصلة الدراسة حتى تخرج من كلية الفنون.

لا... لا أصدق أن امرأة تحمل كل هذه الأحزان بوسعها أن تقدم كل هذا الحب للعالم المحيط بها.. أهي أعجوبة؟... ربما... ولكنها تقول لي:

-يفترض أن يكون الإنسان على هذه الصورة... ليس من عجب.. الحب أيسر من الكراهية.. الحنان أبقى من الإهمال.. إنني لا أقدم إلا ما أملكه... إنه لأمر بسيط غاية في البساطة أن نكون إنسانيين... جربي الكراهية تدمر الروح وتشوه النفس... الحب يعيد بناءنا كل لحظة... تعلمي هذا... أتعلم ولا أتعلم...

تدهشني أمي، تفاجئني الأحداث، أتعامل معها بانفعال أو شيء من الغضب، أمي.. لا يفاجئها شيء...

كل ما يحدث تجد لـه مبرراً...

كل ما يحصل لنا ولسوانا تتوقعه...

كل ما يأتي من الآخرين غير مستبعد ولا يدهشها...

تقول لي:

-هذه هي الحياة... وهذا هو الإنسان.. كل شيء ممكن، وكل شيء جائز في هذا العصر... لا تعجبي ولا تندهشي...

اصمت... لا أعلق بشيء.. كيف لا أعجب ولا أندهش لما يحدث؟

كيف لا أصاب بصدمة أنتكس بعدها وتعود لي كوابيس الصبا.. عندما يغادرنا زياد في سفره المباغت؟.

أصمت، أطيل لحظات التأمل... أعالج كوابيسي.. أتناول أدوية أحاول النسيان... أصمت حين ترتبك الأحوال وتتصاعد لهجة الغضب في حواري معها...

في لحظات الصفو يقوم بيننا حوار مرئي... نظراتنا تستبعد اللغة وتقول ما لا تحتمله الكلمات والألفاظ...

نتبادل أفكارنا، تعرف ما يدور في رأسي، تدرك متى تداهمني الكوابيس ويتلبسني الخوف... أعرف ما يشغل ذهنها... نواصل الصمت...

وحدي أكشف لنفسي عن أخطائي ولا أعترف بها... أتعلم أشياء جديدة كلما سحقتني الأحزان وحولتني إلى بقايا آنسة من بنات الحروب...

أكتشف أنني كنت محكومة بسطوة أفكار مسبقة عن الإنسان والحياة، أفكار أمي... ومثالية أمي.. لذلك وقعت في الالتباس وما كنت أميز بين الأشياء في حقيقتها وبين صورها الزائفة المتداولة بين الناس..

أرى أمي تعبر أقاليم الليل... تنقب عن أثر لشيء ما... تدور حولي تدور حول الليل والبيت... في حديقتها العجيبة أراها روحاً حامية.. ترقب تغيرات الدنيا وترى انهيار الأشياء ونهوضها...

أراها وهي في الحديقة... تزدهر شجيرات الورد وتتكاثف متسلقات الياسمين وزهر العسل... شجرة التين تخضر وشجرة الكمثرى تلوح بثمارها قناديل مذهبة...

أمي تشرق بابتسامة نادرة.. لعلها ترى شيئاً غير الذي أراه... أراها وهي تضفي على البيت وهجاً.. تبدو الغرف مجلوة والأبسطة تشع بألوان الشمس...

أمي تبتسم... لعلها ترانا في الأمس قبل غياب أبي... أو ترانا في الغد بعد عودته إلينا...

تقول لي:

-انظري إليه.. لقد أغفى وكتاب الطبري بين يديه... اخفضي صوت المسجل... أسدلي الستائر... دعيه ينام..

تذهب إليه وتدثره بغطاء وتطفئ مصباح الغرفة... تأخذ الكتاب وتضعه على النضد...

هل أرى ذلك أم أتخيله ضمن كوابيس..؟

أقف أمام النافذة.. الحديقة تتضاءل، تختفي أشجارها ويجف عشبها... تتهاوى الشجيرات والمتسلقات...

أراها وهي المترملة التي لم تترمل إذ لا تقر باكتمال غياب المفقود... (أنا لست أرملة ولن أرتدي ثياب الحداد)...

أرى لهباً، أرى لوحاً من ألواح الأمس.. في لوح الأقدار مكتوب هنا:

غربت حضارات الحب

وأشرقت فينا الحروب

زياد يغرب في المغرب..... ويشرق الشرق مع دموع أمي...

اللهب يطال البحر والنهرين وأمي..

وأمي تستدرج حمامة نوح في أمسية المطر..

تقول أمي:

-هذا طوفان قتل واليمام يعود مضرجاً بالدم..

أراها وقد تلفعت بشال صوفي سميك واقفة أمام النافذة وقد انهمر عليها فيض أبيض من نور القمر فقسم فضاء الغرفة إلى نصفين... نصف رمادي بارد يغمر أمي... ونصف أسود يخفي أحزاننا وأشباح الغائبين...

أرى الدموع تلتمع على وجنتها المضاءة بنور القمر.. شفتاها ترتعشان وهي تغالب عبراتها وتحدق بالنجوم أو ترى نجماً مذنباً يتلاشى في عمق الكون وتكشف عن دخول القمر في برج الحمل أو ترى تقاطع خطين بين برج الأسد والميزان...

بصيرة أمي تفتحت عندما أصابها صدع الألم فصار بوسعها اختراق الزمن والحواجز والنفاذ إلى ما وراء إمكانات الرؤية...

ترى نذرا، تبصر بشائر، ولا تبوح بشيء.. تبكي فأتساءل كم طوفاناً من دموعها فاض على أعوامنا الأربعة عشر منذ فقدان أبي؟؟

لا أملك مكيالاً لقياس الطوفانات ولكني أتيقن وهي مستغرقة في البكاء أنها تدفع ضريبة الدموع عن نساء البلاد جميعهن من أول الخليقة حتى آخر الحروب وظهور النجم المذنب لقيامة العالم...

تؤدي أمي ضريبة الدموع عن النساء منذ شطر الأبناء جسد الأم الكونية سيدة المياه المالحة (تيامات) إلى نصفين..

من النصف الأول صنعوا سقفاً للسماء ومن كبد (تيامات) الذي اقتلعوه بأيديهم قدروا أعالي البروج ودائرة الأفلاك، وبنبض قلبها فصلوا بين تخوم الليل وتخوم النهار وثبتوا معنى الزمان.. من لعابها أوجدوا الثلج والجليد وكثفوا السحب من دموعها الأخيرة وهي تناشد أبناءها الرحمة..

وفوق رأسها رتبوا جدائلها الكثيفة الملتفة كالأفاعي وأقاموا جبلاً انبثقت منه العيون والينابيع وجرى الماء الحي إلى الكائنات..

من عينها اليمنى فجروا نهر دكلاتو (دجلة)... ومن عينها اليسرى فجروا نهر الفرات...

سدوا منخريها واحتفظوا بهما للفيضان..

وعلى صدرها كدسوا الجبال وفجروا عيون الماء... من نصفها الآخر سقفوا الأرض وركزوها ثم صبوا تراباً في جوفها لكي يضمنوا عدم نهوضها وعودتها ثانية للحياة فلا تزاحمهم في ملوكية الكون...

في ذلك اليوم الرهيب لم يندبها أحد من بنيها ولا رتل المنشدون مراثي الملكات والأمهات المقدسات عند رأسها...

بل أقاموا فوق جسدها مهرجان ولادة العالم...

ومنذ ذلك اليوم والأمهات وأمي يبكين لتهدأ نفس (تيامات) التي فتك بها أبناؤها...

تبكي أمي ليعود أبي...
وتبكي ليوقظ دمعها سبات الأرض ويبزغ الخصب في تراب حديقتها..
تبكي..... تيامات، التي هي أمنا وأمي جميعاً..
تغادر النافذة وتذهب إلى المطبخ مستعيدة قدرتها على مداومة العمل تغسل حفنة من حبوب القمح وتنقعها في مياه المطر الذي تجمعه في قنان مغلقة...
تقول لي:
-نصفه للأرض ونصفه للسماء..
أفزع من تعبيرها الذي يطابق تداعيات كوابيسي عن (تيامات)...
-نصف القمح نطهوه لطعام غد، ونصفه لنزرعه في ذلك اللوح المحروث المواجه للشمس...
-أمي أترين أننا سنأكل حب القمح؟
-به تدوم حياتنا... هو وحده يكفينا... ستجيء أيام ضنك وجوع أشد مما رأينا...
تعود إلي الكوابيس بعد نوم أمي... تأخذني إلى تلك الدهور الأولى التي سبقت الطوفان في أور المقدسة..
أسمع مراثي المنشدين يرثون أور التي استبيحت...
المشاهد تتوالى على مخيلتي:
أرى أهل أور في سنواتها السبع العجاف...
في السنة الأولى أكلوا حبوباً وبقولاً..
في السنة الثانية أكلوا نجيلاً وأعشاب براري..
في السنة الثالثة أجدبت الأرض وعم القحط وطغى الملح..
في السنة الرابعة تغيرت ملامح الناس لطول ما التهموا الخبز الأسود الممزوج بالتراث والظلمات..
في السنة الخامسة اكتست وجوههم بلون الجص وساروا كالموتى في الطرق المؤدية إلى المعبد...
في السنة السادسة بدوا في رمق الحياة الخطير...
في السنة السابعة اخضرت وجوه الصغار الذين شابهوا عشب الضفاف الهش وتقوست ظهور الشبان وصار الأقارب يقدمون لحم قريبهم على الموائد... فيأكل الأب لحم ولده.. أما لحم البنات فقد أدخروه للعشاءات الأخيرة في معابد أور...
صار رغيف الشعير يباع بأجرة عمل رجل في مقالع الحجارة...
العرافات وجدن عملاً، فوقفن عند أسوار أور وكشفن عن الطوالع فحصن بقع الزيت في طاسات الماء وفتشن في أكباد العجول عن علامات وأحرقن خشب الأرز المعطر وصرخن بالنبوءة:

-سنوات الجدب إلى أفول..

(2)
((من أوراق ميساء))

أرى العالم قطاراً سريعاً ينزلق في نفق منحدر باتجاه محطة مجهولة.. أحدس وجودها.. أتخيل لها هيكلاً فخماً بعمارة مدهشة وشرفات تتناثر فيها النباتات والمقاعد والمظلات.. قاعاتها المضاءة تعج بالمسافرين من أجناس الأرض كلها وتزينها لوحات ومنحوتات باهرة...

في الممرات معرض لتاريخ النار في الأرض ومعرض لتاريخ الماء.. ومعرض لتاريخ الموت...

صور من جميع الأزمنة تتهاوى والإنسان يمضي في جميع الحقب متجهاً إلى الأمام، ليس من خيار أمامه سوى المضي حتى وإن كانت الخطوة التالية تؤدي إلى هوة أو كمين...

هل أشتبه بالأمكنة؟؟ هل أشتبه بالبشر؟... ربما، لكني أشتبه بأشياء أخرى كثيرة... فتقوم لعبة الحياة لدي على التباسات واشتباهات بحاجة إلى براهين وأدلة للتحقق من صحتها أو لدحضها مثلما نفعل في بلوغ حقيقة اللقية الآثارية وطريقة إحالتها إلى عصر محدد من حقب التاريخ؟؟

الحب... مد لا نهائي... لا ضفاف له.. موج تستولده الريح كلما هبت ولا أحد في لعبة الحب يبصر الحد الفاصل أو الضفة الأخرى..

خمس سنوات.. بمقياس الروزنامات المعتمدة في تقاويم البشر...

خمس سنوات.. بمقياس اندحارات القلب...

خمس ميتات بمقياس السقطات التي مني بها زياد سنوات عربته.. وما بيننا من الرسائل وجدل اللغة وربما الصمم الذي نتفادى به القطيعة النهائية...

الآن ننتظر حدوث أمر ما...

كل الأشياء تتحفز لمواجهة الكارثة التالية... البشر والبيوت والأرصفة والنجوم والريح والسحب... الأشجار التي ستنال نصيبها من النار والشظايا... الكتب التي سيغرقها الطوفان..

انتظارنا يدوم دهراً وبعض دهر.. نهيئ كل ما بوسعنا تهيئته لمواجهة الخطب القادم.. نسلح نوافذ البيت بالآجر وأكياس الرمل...

متاريس ومتاريس نضعها وراء الجدران المواجهة للشارع... نضع شباكاً من الأسلاك اللامرئية فتتدلى فوق النوافذ المطلة على الطريق ونموه ألوان البيت بخضرة الطحالب ولون التراب..

فيفقد البيت والحديقة شكلهما المألوف حتى يغدو منظرهما

أشبه بصورة وهمية صنعت من تداخل الألوان والأشكال ثم امتزجت بالهواء وبدأت تتلاشى فلا يمكن تمييز البيت عن دوامات الريح أو أمواج الماء...

لا يدعي أحد أنه يعرف ما سيأتي...

ولكي نعزز الأمل بالمستقبل جازفنا في إنفاق مدخراتنا القليلة في شراء أغذية ومياه معدنية... اشترينا حبوباً وبقولاً وتمراً وكل ما لا يناله العفن والعطب... ويمكن زراعة بذوره في الحديقة إن استدعى القحط ذلك..

وضعنا أشرطة لاصقة على زجاج النوافذ وحفظنا عدداً هائلاً من الشموع واشترينا فوانيس ومصابيح يدوية وبطاريات، وتبادلنا الخبرات مع معارفنا في كل هذا... ولبثنا ننتظر الواقعة...

في دهور لنتظاراتنا المتوترة كنا ننصت إلى الأخبار ونهيئ أنفسنا لوليمة أكلي لحوم البشر المطهوة بالنفط والمملحة بالفوسفات والمطيبة بالكبريت ونتداول الرسائل لمجابهة الغزو ونتبادل الخبرات أو نستغرق في استعادة قصص المقاومة في باريس وليينغراد التي استعادت اسمها القيصري (سان بطرسبورغ)..

نركض مع المقاومين في الطرقات المثلجة أو نتخفى بملابس مموهة نتعاون في نفس جسر أو نتطوع لإيصال معلومة تنقذ ثلة من المقاومين، أو نمشي على ممرات مفروشة بأوراق شجر البتولا باتجاه البحر...

نتعرف إلى الطيور البحرية التي تدلنا في خط طيرانها على ارتباك الأجواء وهي تسمع برادارها الخفي ذبذبة المركبات والطائرات وتشم رائحة القذائف.

نمسك طائراً، نأخذ ريشة ونمارس السحر.. نحرق الريشة ليظهر لنا الجني الطيب وينفذ رغبتنا المستحيلة...

-شبيك لبيك... خادمك الجني بين يديك... قل أمنية واحدة ولا تطمع بأخرى...

نقول له: الجن الطيبون يحققون ثلاث أمنيات لا واحدة..ـ

يقول: شرط أن تضمنوها في عبارة محكمة (يا خادمنا المطيع، يا جنينا الطيب، احبس الحرب في القمقم وألق القمقم في الأعماق السحيقة للمحيط وأوصد بوابات الجحيم وأطلق شريعة السلام).

يقهقه الجني ويتضاءل حتى يغدو بحجم ثمرة القرع الأحمر ثم ينشق إلى نصفين يطوي الحرب بين نصفيه، ثم يصغر ويصغر حتى يصير بحجم حبة الفاصوليا ثم يختفي ويتلاشى..

لم نعرف إن كان سيحقق لنا أمنياتنا أم أن الحرب التهمته أو أنه عقد معها صفقة خيانته لنا...

سيطول انتظارنا لنعرف... وقد لا نعرف أبداً..ـ

(3)
((من أوراق ميساء))

أحاور حبي لزياد.. أقلبه على وجوهه المتعددة.. أحمله مثل رضيع على صدري...

أختبره، أكيل لـه اللعنات أو أمجده بتراتيل المديح...

أصوغ لـه المراثي، أزنه بميزان عدالتي..ـ أدعكه وأزيل عنه شائبة اليأس...

لا أحد يعلم أي طرقات خفية يسلك الحب عندما يتعثر ويتآكل بحامض الخوف..

لا أحد يعرف كيف يتشكل كوكب الحب في أعماقي ليفيض نوره إلى روحي وذهني ويقرر لون بشرتي ونبرة صوتي وتاريخي...

لا أحد يعرف شفرة سحره وهو يتخلق في حاضر النفس وترتسم عليه آيات الغد..

يتوهم زياد أنه اجتاز مياه بحر الموت وأنه سيفوز بعشبة السعادة ويقطف ثمرة الثراء والمجد، لم يدرك أنه أفلت بجسده ولبثت الروح تصارع المسافات وتقاوم تبدلات الريح..

أكتب له:

رأيتك... في الحقيقة تفرجت على صورك التي أرسلتها... أنت ترتجل عرضاً مسرحياً، وترتدي قناعاً وتخفي يديك بقفازين أبيضين..

شيء واحد أردت إثباته للغرباء:

أن تخفي حقيقة لونك وعلامات سلالتك... ابكي... من أخبرك أنني أستهجن البكاء؟

إنه الممارسة الصامتة للتعبير عن القهر... عن الخسران.. عن العاطفة المهدورة... عن الشوق الذي يصعب إرضاؤه...

والروح التي يستحيل الإمساك بجوهرها ونحن نرتدي قفازات من جلد الأفاعي..ـ

الدموع تفتح لي مسارات لكشف ما تخفيه عني...

أراك مثل بذور نبتة مشردة، ترحل في المسافات وتمتطي صهوات الغيم أو تختبئ في مركب نسيه الملاحون..ـ أو تتعفن في الأرض الجديدة...

الأرض الأخرى... لا تقبل الغرباء بيسر... البذور البرية تتشرد طويلاً في العراء الغربي...

لكل بذرة شرط بقاء قد لا يتوفر في المنافي... البيئة الأخرى ترفض وتجاهد كل وافد... سواء لديها أن جاء متنكراً بزي لاجئ أو أتاها غازياً...

تعرف أم أنك لا تعرف...

إن بعض النباتات من الأشجار والزهور يصعب توطينها في بلاد أخرى لأن كل إقليم وكل بلد.. يسعى للحصول على نقاء عنصري ويرفض الذرة المشردة الآتية إليه عبر البحار والريح...

زياد... لم يعجبني عرضك المسرحي ولم أجد أية أهمية لهذا التقليد غير المسوغ لعروض سويدية أو فرنسية...

أنت تقدم تجريداً خالصاً عن كائن حي لا يمكن تجريده... وتعلن انحطاط اللغة وضياع الأمل وزوال المعنى...

ليتك تتيح لنفسك فسحة تأمل لتكشف ما يحدث لنا حقيقة وما يعد لنا من مصائر مروعة.. ليتك تسمعني..

أنصت إلي قليلاً، دعني أحدثك عما نكابده... ليس هناك من عبث أو تجريد في القتل.. الذين يقصفوننا يعملون بلا تجريدات أو توهمات أو أقنعة... القتل شيء قصدي معرى من كل بلاغة في التشكل... وليس نزهة تجريدية فوق أيامنا...

جائزتك التقديرية التي نلتها من مؤسسة أوربية لا معنى لها لأنها قيمت فيك عدميتك وتبددك...

أنتظر ردك... ما الذي سيحدث غداً لك ولنا...؟

انتظر..... تحياتي

ميساء

يكتب لي:

ميساء... يا حبيبتي....

لماذا تعتقدين أنك وحدك مالكة الحقيقة؟ وأن الصواب هو ما تفعلينه؟ لا توسعي الهوة بيننا، ولست غارقاً لتنقذيني... أحبك... لكن الحب لدي غير الذي تعرفينه...

أنت مغلولة إلى عالمك الراكد وعاداتك... أنت لم تتورطي بدخول تجارب حقيقية كالتي تورطت فيها... الأحلام والأمنيات بدأت تتحقق..

أقيم الآن في مبنى حديث لم أحلم بمثله... مكون من أربعة طوابق في شارع تظلله الأشجار ويتجه إلى هضبة وغابة خضراء منحوني شقة لها غرفتان وشرفة تطل على المشهد...

هذا أقصى ما أتمناه.. شقة جميلة، في بيئة ريفية أوربية ساحرة...

أرجوك ميساء... كوني أكثر تعقلاً، أكثر حناناً وأقل قسوة..

في انتظار رسالتك سوف أتدرب على عرض مسرحي جديد وسوف تصلك الصور تباعاً، باركي لي نجاحي...

وإلى لقـــــــاء...

زياد

*****

الفصل الرابع

(1)

تحتفي أشياء الدنيا بسوزان الجميلة...

تتراقص زهور الجهمنيات في نسيم الصيف على قدميها وتدور الفراشات من حولها وهي تهبط من سيارتها أمام بيت حياة وينفتح في الهواء الساخن ممر ضوئي لمرورها ويتردد صدى خطواتها على بلاطات ممر الحديقة...

تلقي حياة قفازيها وتترك الأصص التي مزجت فيها التراب بالسماد ونثرت فيها بذور زهور الأقحوان الأصفر وورد الفضة والسنتوريا الزرقاء.. وتهرع إلى ضيفتها...

الشاي كان ممتعاً مع كعك التمر، برغم أن الذباب والحشرات الطنانة لبثت تحوم حول رؤوس النساء الثلاث بعد أن انضمت ميساء إليهما...

غمرهن عطر زهور العسل بعد الغروب ولكتسبت حديقة حياة بوجودهن نوعاً من الرسوخ وامتزجت هياتهن بالظلال وبقع الضوء وحومت فراشات دود التين المرقطة حول وجوههن وانحنت بتأثير ذبذبة أصواتهن الرقيقة أزهار شجرة الجمال الصيني القرمزية شبيهة الأبواق...

فيما تبقى من أنوار المساء المتقلبة وفيما تبقى من فسحات صمت بين ثرثرات سوزان وضحكاتها مرت موجات بهجة على محيا حياة.. بينما استولى على ابنتها شيء من الدهشة وهي ترى سوزان مدرسة اللغة الانكليزية في زيارة غريبة لهما في هذا البيت الذي لم يألف استقبال ضيوف من طراز هذه المرأة الثرية الجميلة...

لم تسأل أمها، إنما لبثت تراقب ست سوزان التي تخلت عن تحفظ المدرسات وكشفت عن سوزان الأخرى بثيابها المبهرجة وزينتها ومرحها ونظرتها المشتتة...

تخرج سوزان زجاجة عطر صغيرة من حقيبة يدها وترش

رذاذاً على عنقها ومعصميها... تقدم الزجاجة لحياة:

-جربي إنه عطر من ابتكاري.. أخلط عطوراً فرنسية مع زيت المسك والعنبر الخام...

-أنا لا أتعطر... لست معتادة على ذلك شكراً... بوجود شخص غريب تشعر ميساء أنها مهددة وبلا حماية، وعادة لا يأتي الآخرون إلى أمها إلا طلباً لعون أو طمعاً في أمر لا يجيده سواها...

وميساء تخشى تبدد أمها ما بين حنانها الفياض وكرمها وتقاليد الضيافة، تخشى انطفاء ألق أمومتها أمام الوهج الحارق لسوزان الجميلة بضحكاتها وغنجها...

تنسحب ميساء إلى داخل نفسها وتستعيد كلمات سوزان التي تختمها بضحكة مجلجلة، وتراقب استجابات أمها المحايدة وصبرها على ما ترى من سوزان..

تقول سوزان وهي تحرك يدها المطلية الأظفار بلون أحمر براق:

-أغبطك يا حياة.. أنت امرأة لا مثيل لك بين النساء اللائي أعرفهن... أريد أن أستفيد من خبرتك في الحياة..

تضحك حياة:

-أنت؟.. سوزان تطلب ذلك؟... لا.. لا تكوني واثقة إلى هذا الحد من صواب ما لدي.. فربما لا تناسب خبرتي أحداً سواي..

-أريد أن أغير حياتي ونفسي..

-سوزان أنت مختلفة، يصعب عليك احتمال الزهد والمتاعب أنت امرأة منعمة مترفة فماذا تجديك خبرة المعوزين أمثالي؟

تسكب حياة الشاي ثانية في الأقداح وتقدمه لسوزان وميساء..

-أتريدين شيئاً من السكر؟... تذوقي كعك التمر... صنعته بيدي...

سوزان ما الذي تريدين معرفته؟

ما نوع الخبرة التي تحتاجينها في حياتك؟

-كل شيء... كل ما يتعلق بالحياة، بالنساء والرجال والأمل والحب...

-ولكنك على ما يقال خبيرة بشؤون الدنيا الجميلة... وأعرف أنك بارعة في أسرار الجمال وأنوثة المظهر... فماذا تريدين؟ ألا يكفيك ما لديك؟

-سئمت، سئمت كل شيء... ضجرت من كل ما يحيط بي... ما نفع الثراء والجمال إذا كان الملل يلتهم أيامي؟

تقول ميساء:

-ست سوزان، كان أبي يقول لي كلما رآني ضجرة... (كل من يضجر خاسر، هل أنت خاسرة؟)

-أنا؟.. لا.. أعني قد أكون من النساء الـ....
-لم أسألك ست سوزان... كانت تلك عبارة أبي التي يرددها على مسمعي...ـ
-ولكنها تبدو موجهة إلي...ـ نعم... أنا خاسرة على ما أظن...
تقول حياة وهي تضع يدها على كتف سوزان:
-لو أمعنت النظر في حياتك لعرفت أنك فزت بأشياء لا تقدر بثمن...ـ
-أنا؟.. كيف حياة؟.. لا.. لا.. أنا مولعة بتبديد الثروة والوقت ولا أجيد الإمساك باللحظة المواتية...
-لكنك تملكين أشياء أساسية في الحياة...
-لا... لا يبدو ذلك...
-ستعرفين في يوم ما...
-ساعديني لأعرف... لهذا قصدتك...
-انظري إلى هذه الحديقة المتواضعة الصغيرة، التي لا تقاس بحديقتك وأشجارها الغريبة وأزهارها وخمائلها وبركة السباحة فيها وموقعها على النهر...ـ هذه الحديقة الصغيرة بكل تواضعها تمثل لي امتداداً للبيت والحياة وهي نبع ذكرياتي وكنز أسراري وواهبة البقاء... وحين تضيق بي الدنيا ألوذ بها فتخفف عني وطأة أحزاني ومتاعبي أرعى زهرة هنا وعشبة هناك وتذكرني الروائح بأزمنة سعادتي في هذا البيت...

-أنت تمزحين...ـ ماذا تفعل شجرتان عتيقتان وأعشاب وبعض شجيرات زهور..؟.. ماذا تقدم لك هذه الأشياء... مؤكد أنك تمزحين..؟
-لا أمزح... إنها الحقيقة، لا تحكمي على ظواهر الأشياء.. هذه العشبة عالم حي، لا يقل حياة وأسراراً عنك وعني...ـ وكل ما هو حي هنا ينتمي إلي وأنتمي إليه... نحن أجزاء من كون عظيم.. كل ذرة تراب وكل جسد كون كامل بذاته. هذه الزهرة تكون بي وأكون بها لا تملكني ولا أملكها... هذه هي علاقتي بالحياة... هل هناك شيء تنتمي إليه في هذا العالم؟
-ربما... لا أدري..
-تمسكي بشيء عزيز... بإنسان جدير بمحبتك، بفكرة أو قيمة...ـ أو اخترعي لنفسك شيئاً تتعلقين...
-لكن... لا شيء يستحق، أنظر حولي فأرى كل شيء أقل شأناً مني، فبماذا أتمسك.. كل الأشخاص والأشياء لدي عديمة القيمة...
-اقلبي الموضوع.. اعكسي الأمر، وافترضي أن لكل شيء قيمة وشأن وتجردي من هذا الزهو بنفسك... عندئذ ستجدين ما

هو جدير بأن نتمسك به.

-هل أعتبر هذا درسك الأول لي...

-وسيكون الأخير.. فمن هذه النقطة تبدأ علاقتنا بالحياة... أن نحترم كل موجودات الكون وننتمي لإنسان أو قيمة.. أو شيء..

-يا حياة... هذا درس شديد القسوة.. لا أستطيع.. أحتاج إلى تدريب طويل لأتغير...

-بل إلى محاولة صغيرة فقط...

-لا عليك... اسمعي حياة أنتما مدعوتان في بيتي... ستتناولان الغداء معي يوم الجمعة ثم نتنزه في يختنا عند الغروب..

-أخشى أننا لا نستطيع قبول دعوتك، يوم الجمعة يوم عمل مضاعف بالنسبة لنا... وميساء تعطي دروساً في الموسيقى لبعض السيدات..

-اخترعي لنفسك وقتاً.. ألم تعلميني قبل لحظات أن أخترع أشياء؟

يضحكن... تضحك النساء الثلاث...ـ

-سنحاول في يوم ما...

-أريد أن أحتفل باستقالتي.. هل تحبين أن أعو المدرسات الأخريات...ـ أم أقيم لهن وليمة أخرى.. ماذا ترين؟

-هذا الأمر يعود إليك...

(2)

تعتقد سوزان أنها ولدت تحت طالع نجمة نحس وأن طوالع السعد لم تواف أحداً من أسرتها سوى أختها بوران التي هاجرت إلى الأردن وتزوجها رجل أعمال لبناني... جمعا الثروتين وعملا في مجال الاستثمار السياحي.ـ ولم يحصل أخوها سنان إلا أخيراً على عقد لتدريس الهندسة المعمارية في جامعة (كوالا لامبور) في ماليزيا..

وهي تضيع كل فرصة مواتية بالأغلال التي اختارتها لنفسها وتبدد ثروتها التي ورثتها عن أبيها تاجر السجاد والعقارات وتدفع أثماناً مضاعفة للزمن المتبقي وأثماناً مستحقة للتكفير عن خياراتها الخاطئة...ـ

منذ ثلاثة أعوام خطبها (عبد المقصود الغنام) وعقد عليها ولبث يؤجل الزواج ليطيل ابتزازها وإذلال زهوها بنفسها... وعندما طلبت الطلاق أمعن في الرفض... وتركها معلقة رغم الدعاوي التي أقامتها عليه... ولينال من كبريائها بضربة أخيرة يتزوج ابنة عمه ويواصل ابتزاز سوزان حتى أنه طالبها أخيراً بالتنازل عن نصف بيتها ليسرحها...

فكيف ستخترع لنفسها ما تتمسك به؟ وبم تتعلق؟ ومن هو الجدير بها بعد الذي نالها من عبد المقصود؟

غسان؟... هجرته مذ التقت (عبد المقصود) الذي بهرها بأكاذيبه الفاتنة وقدراته الاستحواذية على النساء... وها هي الآن امرأة مهجورة.. جسد ميت في كفن عطور وحرير.. ملقاة هنا في سرير وحشتها لا يد تلمس ذراعها ولا رائحة إنسانية تذوب على شفتيها...

تفتح نافذة غرفة النوم المطلة على دجلة من الطابق الثاني لقصرها العتيق فيتوغل الشرق والشموس في غرفتها، وتنتعش روحها بالنسيم النهري الندي ولكن ما إن تشتد الريح حتى تنهمر فوق البيت وبساتين البرتقال النهرية رائحة احتراق الغاز من مدخنة مصافي النفط...

توصد النافذة وتشعل جهاز تعطير صغير يعمل بالكهرباء، يغمر جو البيت متى شاءت بأريج غابات أو عبير شواطئ، أو عطور زهور الأوركيد أو أنداء أعشاب الألب من جبال سويسرا...

في ترفها الذي تدافع به عن وجودها تترقب أخطاراً تهب عليها في أي لحظة طارئاً ما... أو حادثاً... أو اقتحاماً يدبره لها هذا الرجل الذي سمم حياتها...

يضطرب نومها وصحوها فتستحم في مغطسها المرمري المزين بحواف مذهبة تذيب في الماء كريستالات أملاح عطرة ملونة وتحاول أن تنسى...

يتوارى جسدها في الماء لكن عذابها يتعالى مع البخار... يشكل هالة قاتمة حول وجهها الناصع ويبطل مفعول الترف المائي...

إنما... لما تكون قد بلغت حافة البكاء ووقفت على أولى درجات الانهيار تلقي بجسدها في البركة... بركة السباحة واسعة تتخذ شكلاً بيضوياً به استدارات وتموجات... قاعها فسيفساء فيروزية، بحر... تستعير سوزان بحراً مصغراً بثروة تملكها، مياه لازوردية وأمواج... نعم... أمواج يولدها جهاز صغير يوهمها بإمتلاك بحر في بلادها المشمسة، بحر.. لكنها ترى ضفتيه، لا يأخذها طويلاً إلى المجهول، لا يرعبها بأسماكه المفترسة، لا يمنحها أمل الرحيل، بحر مزيف... كل ما حولها تزييف لأشياء حقيقية ولت... كل ما في حياتها استعارات عن حيوات أخرى...

المرايا البيضوية العملاقة بأطرها المذهبة، المرايا المستطيلة والمرايا المستديرة، المرايا بأشكال سداسية، المرايا بأشكال مثلثة... تحيط بسوزان وتعكس لها آلاف الوجوه لوجهها وجسدها... تحاصرها وتحدق بها وجوهها...

تجفف شعرها بعد الاستحمام... فيفقد لونه الغامق وتظهر خصلاته الذهبية الشقراء الموشحة بخصلات متفاوتة الألوان بين الذهبي والبلاتيني الباهت..

المرايا تفتح روحها... هل بقي لدي روح؟... تسأل نفسها؟.. المرايا تخدعها.. تسخر منها، المرايا تقول لها ما لا تسمعه من البشر...

تسأل: من أنا؟... وما أنا؟
تسمع قهقه المرايا: أنت كل هذا...
أنت كل هذا، ولست كل هذا...
-ما أنا؟... من أنا؟...
-أنت القصر القديم والرخام الممحو بآلاف الخطى.. أنت الموسيقى والعطور الهجينة...
أنت الزجاج الملون.. أنت الثريات المثقلة بالكريستال والأنوار...
-أنا؟... من أنا؟...
-أنت الأرائك الوثيرة التي من حرير وسنديان.. أنت منضدة المرمر أنت وعاء الورد.. أنت اللوحة الجامدة... أنت التمثال المتسمر في وقفته
أنت الستائر التي تشربت غبار الأعوام...
أنت الأنثى في صعودها إلى الفتنة...
أنت المرأة في خضوعها ومذلة المساومات...
تضحك... تضحك سوزان... تضحك مقهقهة...
تقول للمرايا: أنا؟.. كل هذا؟.. عجباً.. لماذا أشعر أنني لا شيء على الإطلاق حينما أواجه نفسي... أشعر أني خفيفة لا وزن لي ولا معنى...
أنا لا شيء..
-أنت كل هذا... أنتِ
-أنا الإنسان في هوانه حين يزن نفسه بثمن بيت أو لوحة... أو ثمن وثيقة طلاق.. أنا لا شيء..
تضحك.. ثم تجهش بالبكاء...
تبلغ أصداء ضحكها ونحيبها مسامع أم توماس عندما تتكاثر في الممرات الطويلة...
تسمعها فتأتي... خطاها مترنحة تحت ثقل جسدها البدين وفي يدها مسبحة خشب يتدلى منها صليب فضي صغير...
-ما بك... لتحرسك العذراء مريم.. ما بك يا ابنتي..
-ما بي شيء.. هيئي لي الفطور وضعيه في الشرفة أمام البركة.
امرأة في الخامسة والثلاثين وعجوز في السبعين...
تسند كل منهما الأخرى في عالم يتهاوى... عالمهما يترنح مثل جسد أم توماس الثقيل... عالمهما يتطاير مثل شعر سوزان الأشقر عند أول هبة ريح...
يرسل توماس لأمه دعوات لزيارته في (ديترويت) قبل (11 أيلول) دعوات متتالية.. يهاتفها لدعم رغبته:
-أمي.. سافري إلى الأردن.. سأهيئ لك كل شيء... عندما

تصلين إلى هنا.. ستحصلين على (الكرين كارت) وبعدها يمنحوك الجنسية أسرعي يا أمي لا تضيعي الفرصة.

-اسمع توماس.. أنت وزوجتك ريتا.. إني ما أريد جنسية.. عندي جنسية.. ما أريد (كرين كارت) انتهى الموضوع.. تسمعني توماس ما أريد أسافر... أني باقية هنا مع سوزان ببيت المرحوم بهجت.. تسمعني...ـ

تقيم أم توماس في هذا البيت منذ أربعين عاماً.. تدير شؤونه وتربي الأبناء وتهيئ الطعام الموصلي والبغدادي لهم وتبقى في البيت بعد أن تفرق ساكنوه في جهات الدنيا...ـ

وهي تشهد تداعي الأسرة والمنزل وتشتت البشر بين المقابر والمهاجر...

ـ يريدوني أترك أهلي وأروح هناك..

ـ ولكن.. تقول لها سوزان.. أقاربك هاجروا إلى هناك من سنوات ما بقي منهم أحد...ـ

ـ اسمعي سوزان...ـ أهلي... هنا ببغداد وفي تكليف أمي وأبويا... وعمي القس بهنام...ـ وخالتي جوزفين وعمتي فكتوريا... وابن عمي جوزيف وابن عمتي متي...ـ أبو توماس... كلهم هنا

ـ لكن كل هؤلاء ميتين...

ـ لا سوزان... هم أحياء أكثر من الذي تركوني... وذهبوا... أحياء...ـ تعرفين كل ليلة يزوروني بالحلم... كل ليلة أشوفهم.. طالعين بعيد العذراء للجبل... لو اسمع عمي القس بهنام يحكي موعظته الحلوة...ـ ما عاد نسمع مثلها... عمتي فكتوريا تعمل خبز الرقاق للشتوية وأمي تعمل الكشكي... وأنا والأولاد نروح للبساتين نجمع حب السماق... وحبة الخضرا... كل ليلة صدقيني أشوفهم..

توماس ما أشوفه... لكن ادعيلو الله يسعدو... وين ما كان... الله يسعدوا ببركة العذرا...

تمسح أم توماس دموعها بطرف ربطة الرأس السوداء المبقعة بزهور حمراء وتتدلى من تحت حافاتها ضفيرتان رماديتان هما كل ما تبقى من شبابها...

تحاول الاثنتان صنع شكل جديد لعائلة مفقودة.. تحاول سوزان أن تكون الابنة وتقوم أم توماس بدور الأم...ـ مع احتفاظ بفارق المكانة...

سوزان تتبدد في ملابسات زيجة غريبة معلقة... وأم توماس تهب الحياة ولداً يغادرها إلى المهاجر...

تبكي أم توماس...

تراه في الحقيقة... تراه في الحلم... ولا تراه...

هو الآن في حفل التعميد... في كنيسة القديس يوسف شفيع العمال في حي الجامعة... بين صغار يرتدون ثياباً بيضاء مزينة بأشرطة مذهبة وأرجوانية...ـ والشماس يطوف بالمبخرة

حول الرؤوس... وضعت زهور الجوري في المزهرية قرب المذبح... تبرعت عن نفس والده بعشرين ديناراً..ـ

القس بدأ بالتراتيل..ـ كان توماس جميلاً..ـ أجمل من الجميع... أجمل من أبيه ومني..ـ الله يسعده ولتحمه العذراء مريم...

تجد سوزان رسالة الكترونية من أختها بوران..ـ

ـ سوزان افعلي أي شيء.. لابد من طريقة... امنحيه كل ما يطلبه... ليسرحك... أصحبي أي آخر بعقد مؤقت.. وتعالي إلى عمان... أنتظر ردك

بوران

تكتب لها:

عزيزتي بوران:

لا أستطيع..ـ أتفهمين...

عبد المقصود يبالغ في ابتزازه لي... يرفض التطليق إلا إذا شاركته في ملكية بيتي..ـ (لقد عرف أنكم تنازلتم لي عن حصصكم بعملية البيع)... إنه أخطبوط لـه ذراع في كل الجهات..ـ

ذهبت لأتفقد بيتك بعد أن غادر الحارس إلى الكوت لمدة أربعة أيام بسبب وفاة عمه. وجدت نافذة غرفة النوم محطمة وجهاز الإنذار معطل أحضرت من أصلحه...

سرق اللصوص أجهزة كهربائية... جهازي تلفزيون وفيديو... ومسجلات... سرقوا تحفاً نحاسية... وثياباً... أظنهم أخذوا معطفك الأسود..ـ ظنوه فراءاً حقيقياً...ـ

اطمئني... اللوحات الأصلية ترقد بأمان في السرداب، استثمارك الحقيقي وثروتك في هذه اللوحات..ـ الأشياء الأخرى تعوض..ـ ولكن... سمعت من أخي سنان أنك تعتزمين بيع كل شيء البيت والأثاث والمزرعة... فهل ستأتين قريباً لتصفية الممتلكات...؟

ـ الحديقة جفت، ماتت شجيرات الغاردينيا وشجرة المانجا... وجفت أشجار المطاط..ـ لم أعثر على بستاني يقبل العمل بعشرة الاف دينار طلب أحدهم عشرين ألفاً.. قال هذه مزرعة وليست حديقة...

تحياتي لزوجك وليد... مبروك حصولك على الجنسية اللبنانية.. أبلغيني مبكراً إذا عزمت على المجيء إلى بغداد...

قبلاتي لك...

سوزان..

تذهب أم توماس إلى الكنيسة في عيد الصعود وتجلب معها من هناك غصن زيتون تعلقه على باب غرفتها وسوزان تشتري كلباً أبيض من سلالة أصيلة مزوداً بشهادة ميلاد وأسماء سلالته وأماكن ولادتهم في سويسرا ولبنان...

تشتري حوض سمك كبير وأقفاصاً تحشد فيها الببغاوات الملونة.. يصحبها الحارس أبو حسين إلى سوق الغزل في شارع الكفاح... ترى الأفاعي والبط والأوز والقردة والغزلان والحمام والديكة الرومية والسناجب وطيور الحب تتكاثر في الأقفاص العديدة المعلقة في الشرفات وتضج طوال النهار...

تتعلم سوزان أشياء كثيرة... تشارك في دورات فنية لتعليم تنسيق الزهور بطريقة (الايكابانا) اليابانية في نادي (العلوية)... تلتحق في دورة للغة الفرنسية في المعهد الفرنسي... منذ سنوات وهي تحاول أن تتعلم لغة (بودلير) بعد أن عجزت لغة المتنبي ولغة شكسبير عن منحها مفتاح الخلاص وان في وهم وهمها...

تشترك في نادٍ للرشاقة، تشتري دزينة عدسات ملونة لعينيها تزرع أظفاراً صناعية... وتجري عمليات تجميل لجسدها... (شفط دهون لبطنها وتجميل لصدرها)...

الصدع يتسع ما بين نفسها ونفسها... الجسد يكتمل والروح تتآكل... المقاييس تبدو في تناسقها، والنفس تبدو في فوضاها ولا تناسق بين الحالتين... الجسد جميل مدهش والوجه مثار فتنة... والروح رماد.. والنفس تحيا في الخوف... والكابوس يستولد كوابيس... تعين حارساً ليلياً لحمايتها من احتمال اقتحام يدبره عبد المقصود... تبلغ الشرطة عن محاولات اعتداء وهمية..

يقول لها الدكتور سلام: عاودتك أعراض الاكتئاب.. داومي على تناول العلاج... سأراك بعد أسبوع...

تهاتفها شيرمين الأزميري:

ـ وأخيراً... أخيراً سأسافر..

ـ ماذا فعلت؟... ماذا؟

ـ عثرت على شاب يعتزم الهجرة... اتفقنا على عقد مؤقت مقابل ثلاثة آلاف دولار اشتريت بها حريتي... إلا تباركين لي؟ لقد عقدنا اليوم

ـ هل تعتزمين الارتباط به؟ إذا راق لي خلال الرحلة... لم لا؟ ما المانع؟

ـ وإن رفض؟

ـ يرفض؟... لا... لا يمكنه الرفض... كثيرون يتمنون هذا العرض ماذا يريد... الهجرة؟.. سأيسرها له.. المال... لدي ما أغمره به الأنوثة... أنت تعرفين شرمين.. وأنت؟

ـ تعرفين التعقيدات... أنا الآن أسيرة فعلاً...

ـ ألم تقنعي عبد المقصود؟... امنحيه ما يريد...

ـ لن أمنحه ارث أهلي... يريد سلبي كل شيء...

ـ اشتري نفسك...

ـ لن أفعل... سأحاول معه حتى النهاية.

(2)

تدون سوزان اسمها السوسني على بطاقة الانتخاب في المركز الانتخابي..ـ ولزهوها في لحظة تحقق إنسانيتها كونها تساوي الذكور في حق التصويت... تنسى وضع النقطة على حرف الزاي فتكتب اسمها...

ـ سوران..ـ

قبل دخول القاعة وهي توقف سيارتها ينظر إليها الشبان والكهول نظرات عهدتها في الجميع، فالكل يتشهى امتلاك هذه المرأة الفياضة بالأنوثة والجمال الذي يماثل جمال أميرات الأحلام وفاتنات السينما والمطربات اللائي يتوهج جمالهن في الشاشات ولكن ما أن تمسك بالبطاقة الانتخابية حتى تنسى تلك النظرات والتعليقات فتحس لبرهة أن الاعتبار المسلوب لأنوثتها قد أعيد إليها...

يناديها سوران يتفضل لتسلم بطاقته...

طعنة في أعماق الزهو تصيب أنوثتها المستفيقة... تبتسم للمفارقة اللغوية... فهي ما إن دخلت اللحظة التاريخية لتأكيد جدارتها ولأنسنة وجودها دون خوف من أنوثتها... حتى أطيح بحلمها...

ـ السيد سوران بهجت...

ـ نعم أنا سوزان ولست سوران..ـ

يبتسم الرجل على استحياء...

ـ معذرة... أنت كتبت الاسم بدون نقطة... كثيرون يسمون سوران..ـ اسم متداول في الشمال أليس كذلك؟

ـ ربما... لا بأس...

ـ إنها النقطة...

ـ نعم النقطة...

....

سوزان أو سوران؟....

رجل... امرأة؟...ـ

ذكر... أنثى؟...ـ

أنثى معترف بها ونقطة تبطل الاعتراف بها في اللحظة التالية..

أتكون النقطة حداً باتراً بين وجود ووجود؟

بين حقيقة وأخرى؟... بين بشرى الخلاص وحقيقة المعاناة الأليمة؟...

سوزان... تحمل سوزان، الاسم يحمل صاحبته ويعبث معها أو يرفعها درجات أو يهبط بها درجات أخرى...

اسم اختاره لها أبوها باعتباره عمل تسوية بينه وبين زوجته الأيرلندية... بين شغفه باسم زهرة السوسن البنفسجية الرقيقة التي من حرير وشذا وعمر قصير لا يدوم إلا يوماً أو بعض يوم..ـ تتفتح في أواسط نيسان وتنتهي عند اشتداد الحر...

فعل التسوية بين اسم منسوب لإرث الطبيعة وأزاهيرها وجمالها وعطورها وخلودها وبين ترضيته الزوجة التي أرادت أن يكون الاسم (سوزان) المنسوب إلى الإرث التوراتي لتستطيع نطق الاسم دونما لكنة تشوهه أو تحريف يفقده الجمال...

وعلى هذا المبدأ ذاته اختار أسمي ولده سنان واينته بوران..ـ لكن الأم حرفت اسم سنان بلكنتها التي تميل إلى كسر الحروف فصار (سينان)

كانت في طفولتها وصباها تتوسل لأبيها:

ـ أحب أن تدعوني سوسنة... أرجوك لا تناديني أنت وأمي باسم سوزان... أحس أنه يشبه اسم قطة أو أي شيء آخر...

كان يقول لها:

قد يكون اسم سوزان أنفع لك في ما سيأتي من زمان...

نقطة صغيرة مهملة تغير حياة كائن بشري وتحوله من أنثى إلى ذكر في أقل من ثانية...

أي سحر تمتلك الكلمات كما تقول ست حياة؟...

وبوران تقول في رسائلها التالية:

(أيتها الأخت المجنونة... حاولي... لا تتوقفي عن المحاولة... اخترعي أية طريقة للسفر...

اسم سوزان سينفع... جنسية والدتي الأصلية ستساعدك على الحصول على فيزا لأي بلد تشائين... لم أكن أدرك فائدة اسمك لكني على ثقة من كونه سيكون مهماً الآن..ـ

أخبارنا... رائعة... انتهينا أخيراً من تهيئة المبنى وجرى افتتاح فرع لمطعم (ماكدونالد) في عمان الغربية، في أجمل شوارع عمان...

أحيا الافتتاح مطرب عراقي ومطربة لبنانية وراقصة مصرية..

كان افتتاحاً باهراً تحدثت عنه الصحف والفضائيات...

دعونا نجوم الفن والمجتمع في عمان وبيروت...

وليد يبلغك تحياته ويبارك لك عيد ميلادك...

ملاحظة: ستصلك هدية عيد ميلادك مع مدام كارلا زوجة طوني أبو شحرور بعد أسبوع.

لك قبلاتي..ـ أنتظرك...

(بوران)

ربما سيكون للاسم سحره عند حافات اليأس البشري... من يدري؟...

لاسمها طعم الأمل الحليبي، هل تحمل الأسماء مذاقات؟

كانت ترى في اسم بوران طعم البلوط... لا تدري لماذا... أما اسم أخيها سنان... فقد عثرت لـه على طعم الدارسين... كانت أمها تسمي الدارسين (سينامون) بلغتها الإنكليزية فارتبط اسم سنان بالسينامون، أحياناً تمنحه نكهة مشروب (السينالكو) وهكذا كان مذاق اسمه يتبدل حسب تبدلات علاقته بأخته وما تحب من مذاقات...

تروي لها أم توماس حكايات وقصصاً خرافية بلكنتها الشمالية التي لم تتحسن منذ ستين سنة أمضتها في بغداد... علقت بذهنها قصة ذلك الرجل الذي كان يرتدي ملابس النساء ويرقص في الأعراس وتلك المرأة التي ترتدي ثياب الرجال وتجالسهم في المقهى أو تذهب إلى السوق لبيع ثمار حقلها المحمولة على بغلتين...

في الليل تجرب سوزان الممكن المتاح....

تطرأ لها فكرة مجنونة...

تختار بدلة رجالية داكنة من بدلات أخيها سنان التي تركها حين رحل إلى ماليزيا...

تأخذ قميصاً بلون سماوي وربطة عنق مزخرفة وترتدي هذه التشكيلة وترفع شعرها الأشقر الكثيف وتثبته بدبابيس الشعر لتضع فوقه قبعة من القش، ترسم شاربين بقلم الكحل... يبدوان بشعين لا يشبهان شاربي أي رجل...

تقص خصلة من شعر مستعار وتلصقها فوق شفتها العليا... تبدو مقنعة...

تسير... تجرب خطوات رجل، تنطق بعبارات معينة في محاولة اكتساب نبرة ذكورية... تتفرج على المسخ الذي أوجدته بالثياب هما "شاربان"

تليث محاصرة بحملها ومشدودة إلى الأرض بسلاسل ارتباطاتها التي لا فكاك منها متطلبات أنوثتها تتقاطع مع حلمها...

فتقع سوزان بين قبضتين تطحنان روحها...

خبرات الأنوثة، معارف الجسد، أوجاعه عاداته البيولوجية، أشواقه تطرد الفكرة الرهيبة وتحولها إلى لحظة جنون عابرة...

ويترسب شيء في أعماقها... شيء من هذا الرجل المسخ الذي أقرت بوجوده المرايا وقشرة الشكل...

الرجل المسخ بذرة لأشواق حريتها، لذلك تمسك جوارحها بالبذرة الغريبة وتحاول أن تحميها...

قد يكون بوسع معجزة أن تحولها إلى رجل فتنتهي مأساتها.. وتتحلل من قيود أنوثتها...

القلق والخوف، الرغبة في التحول والرغبة في الخلاص...

تتوتر وترتجف... كان بوسع هذا الجسد الجميل أن ينجب

أبناً أو أبناءً

أن يسعد بالتحولات التي يخلقها الحمل... ويتشكل في أعماقها كائن صغير...

تنوجد حياة وتشع على وجهها وجسدها كله... تغير مصيرها لو كان لها ولد لو كان عبد المقصود رجلاً سوياً إذن لصنعا حياة معقولة وسط الحروب...

هو برجولته وقوته الجسدية وهي بأنوثتها وثروتها.. لو كان ذلك حدث...ـ

لكنه لن يحدث...ـ وعبد المقصود أنجب من زوجته الأخرى... وهي تهاب التفكير، حتى مجرد التفكير بأمومة تستحقها، ولكن أي طفل ستنجبه سيكون ضحية للحروب التالية... سيغرقها هي ومستقبلها في الأحزان...ـ وسيولد ويجوع، سيكون هناك شيء آخر... قد تكون هناك حصارات ومجاعات وسيفقد الطفل الأمل بمستقبل جميل، سوف تنضب ثروتها... ويحيا الطفل في العوز.....

لا... لن تكون أماً ولن تتزوج حتى لو سرحها عبد المقصود... لن تصير أماً...

في تلك الليلة لم تنم... راقبتها أم توماس وهي تئن وتنقلب، سقتها مغلي نبات (حصا البان) و(المردقوش) لتنام... لم تنم...

الأنباء مقلقة، تلصق المرأتان الشرائط اللاصقة على الزجاج... الأنباء تشير إلى اقتراب العدوان...

لا تريد سوزان ولداً أو بنتاً، أين ستذهب بهم إن قامت الحروب...ـ

القرن الجديد قرن حروب وكوارث...ـ

ـ أم توماس... هل كنت سعيدة بإنجاب توماس؟؟

ـ نعم... كان أجمل شيء في حياتي...ـ أجمل شيء... عندما كنت أرضعه كنت أمتلك الدنيا...

لو تزوجت الآخر، لو كانت ذهبت مع (غسان) إلى عالمه البسيط وتزوجته، إذن لكان الأمر أيسر عليها من هذا الذي وجدت نفسها فيه...

لكنها كانت مفتونة بنفسها... أحبته وكبحت ذلك الحب، هجرته دون أن تجد مبرراً للهجران...ـ سألت عنه أصدقاءه فقيل لها:

على ما هو عليه، منهمك في عمله، يصور موضوعات غريبة ويقيم معارض في الشوارع عن الشيخوخة والمجاعة، عن النساء في ظهورهن الإنساني دون بهرجات وجمال... يصطاد لقطاته في الأسواق والأزقة والمقاهي والمحطات...

ـ كيف هو؟

ـ على ما هو عليه... خاتم الفضة الذي يربطه بك لا يزال في اصبعه...

صورة الخطوبة التي التقطها لك معلقة في الستوديو..ـ غسان لن يتغير...

غسان لن يتغير... لكنها ستغيره، بوسعها أن تدير العالم باصبعين وتغير اتجاه الشمس أو مسير الرياح... بالمال يمكنها صنع معجزات... لكن معجزاتها لم تنجح مع عبد المقصود... ستغير عالمها... غسان، وعبد المقصود والحياة كلها...

ستفعل ولكن ليس كما اقترحت حياة، بل بأسلوبها هي... بطريقة سوزان وحدها ستغير العالم...

تروي لطبيبها د. سلام المحمودي إنها تشعر بأعراض الاكتئاب ذاتها تعاودها...

ـ تمتعي بحياتك... عليك بالاسترخاء... اضحكي تسلي بهواية... ألا تقرأين؟

ـ أقرأ... لكن ليس إلى حد الإدمان... أقرأ الآن بالفرنسية... روايات بلزاك... أشعار فيرلين.

ـ جيد... ذلك جيد...

ـ لكن... أتحفظ السر؟..

ـ أديت قسماً من أجل هذا..

ـ أريد أن أتحول إلى رجل..ـ

ـ ماذا؟..

ـ أريد..ـ أن... أتحول..ـ إلى رجل..ـ أهذا واضح؟

ـ هذه علائم انتكاسة خطيرة في حياتك... هذا نوع من الهذيان...

حالة استحواذية... تعرفين أن الاكتئاب يتخذ أشكالاً مختلفة...

ـ صدقني دكتور سلام..ـ أريد ذلك فعلاً، ليس للأمر علاقة بالاكتئاب؟.

ـ أنت امرأة جميلة، وآلاف النساء يتمنين جمالك... لماذا؟... أريد أن أعرف... لماذا؟

_ أفضل أن أكون رجلاً لأسباب عديدة..

ـ ولكن.. أنت امرأة جميلة جداً...

ـ وهل أعجبك؟

ـ أنت أمنية أي رجل...

ـ هل تتزوجني؟

ـ أنك تهذين... تعلمين أنني متزوج وتعرفين زوجتي (زينة) التي لا استبدلها بنساء الدنيا كلها..ط

ـ لكني أريدك أقبل أن أكون زوجة ثانية... أو تقبل أن تحولني إلى رجل..

ـ ليس بوسع الطبيب الموافقة على مثل هذا الطلب...

أرجوك.. لابد أنك تمزحين..ـ
ـ إذن وداعاً...
الطبيبة النسائية التي ذهبت إليها قالت:
ـ لا شيء... أنت أنثى مكتملة... تتمتعين بمواصفات نموذجية ولا مجال للشكل في اكتمال أنوثتك..ـ
ـ أريد التأكد علمياً... ألا تجرين فحصاً للهرمونات؟
ـ... لا أستطيع لأنه ليس من علامات... لا شعر زائد في الوجه لا تغير في نبرات الصوت..ـ لا ضمور في النهدين...
ـ لكني أريد ذلك فعلاً...
ـ ليس من مؤشرات بيولوجية تساعد في ذلك...
ـ والمشاعر؟
ـ أية مشاعر...؟
ـ أشعر بأنني رجل..ـ أعني أميل إلى النساء... مثلما يحدث للرجال....
ـ لا نعول على هذا... أتستخدمين أدوية معينة؟
ـ نعم... أعالج من اكتئاب بسيط.
ـ إذن مشاعرك لا يمكن أخذها بعين الاعتبار... القضية ليست بهذه البساطة...
ـ سوزان..ـ لا أمل... اسألي طبيباً اختصاصياً بالغدد..ـ قد يستطيع إقناعك..

تقود سيارتها البنفسجية طراز (B M W) وتمضي نحواً من ساعتين وهي تتجول في الشوارع المكتظة حيث وضعت الإستحكامات والمتاريس استعداداً لأي مواجهة في مداخل الأزقة...

تسير على غير هدى ودونما رغبة في بلوغ مكان محدد..ـ تتجه أخيراً إلى متجرها المخصص لبيع التحف واللوحات في منطقة المسيح، تجد أن التيار الكهربائي مقطوع فتستدير بسيارتها عائدة على البيت..ـ

تتناول جرعة من الحبوب المهدئة لعلها تجد عند الاستيقاظ منفذاً للإفلات من مصيرها...

(3)

تجلس متعبة، على أريكة وثيرة أو سرير... تجلس ساهمة، تتصفح كتاباً باللغة الإنكليزية، ربما كان ديوان شعر لشاعر من الذين أحبتهم... (اللورد بايرون)...

مؤكداً أنه للورد بايرون... شعرها الأشقر يتناثر حول وجهها وملامحها ذاوية...

تتمتم بالكلمات، ثم تغلق الكتاب وتلقيه جانباً...

تخبرها أم توماس:

ـ أسمعت؟ هناك حرب جديدة يهددوننا بها....ـ

لا تستجيب لمخاوف أم توماس... تفكر ما الذي بوسع أحدنا أن يفعل للحرب، إن كانت ستأتي فهي آتية..

ـ هل تريدين الذهاب إلى أي مكان؟ أم توماس؟

ـ لا... أنا معك...حياتي حياتك... أنت مثل ابنتي...أعز من ابنتي حتى...ـ

تعرفين...ـ أنت عزيزة...

تصعقها العبارة... لماذا لا تكون أم توماس أمها...؟ لم تطرأ عليها هذه الفكرة... تطردها... تحاول أن تغير مسار أفكارها... لكن الموضوع ينغرز مثل نبلة أجيد تصويبها ويستقر في أعماقها، بلبلة أخرى لم تكن بحاجة إليها، افتراض أن تكون أم توماس أمها...

تتقدم منها أم توماس وتلمس رأسها:

ـ أنت محمومة... لا تبكي...ـ أصلي في الليل والنهار لتساعدنا العذراء مريم...

لا تنسى عذابنا يا يسوع... أصلي للقديسين كلهم... أدعو لك كل ليلة..

يا ابنتي سوزان...

من جهة النهر تنبعث صيحات طيور النورس القلقة، تنقض على سطح الماء ثم تحلق ضاجة في حركات نزقة وعدائية وتلتمع أطراف أجنحتها المبلولة حتى لتبدو من وراء النخل أشبه بغيوم صغيرة مشتتة ماطرة...

الأشجار في حديقة سوزان كثيفة نضرة متضامة الأوراق وكأنها تشكل في الجانب الشمالي من الحديقة جداراً من خضرة تتدرج ألوانها حسب

مساقط الضوء وتغيرات الأوقات...

شجرة البوهينيا ذات الزهور الأرجوانية شبيهة الأوركيد ساقطت آخر زهورها الذابلة وبقيت بعض البراعم المتأخرة...ـ

والشجرة مسكونة بأعشاش بلابل وعصافير تصنع مشتركاً بدائياً للتعايش بين أجناس الطير وتستعين الطيور على الخوف بالتجاور وتتبادل لغة الطير التي تعلو في الصباح والمساء على لغات الأرض الأخرى...

في ضجة هذا العالم تقوم سوزان من خدر نوم المهدئات، جسدها منهك وعيناها متورمتان...ـ

ترى كل شيء مختلفاً، كأنها ليس هي... أو كأن المكان ليس بتلك الألفة القديمة، كل شيء ليس كما عهدته... كل شيء ليس كما تتوقعه...

حتى الشمس...ـ تبدو شمساً أخرى بسطوع باتر كأنه حد شفرة يحدث تناقضاً بين الظل والضوء في الممرات...

وينعكس وهجاً مألوفاً في أعالي الأشجار...
هل تغير العالم هذه الليلة؟ أم أنها هي التي تغيرت؟
هذا الصباح الصيفي يفجر في أعماقها أحزان عمر بأكمله وغبار أخطائها يظلل أيامها والأشياء من حولها...
فقدت الأشياء ألفتها، المقتنيات الثمينة، الصناديق المرصعة بالعاج، التحف المجلوبة من الهند وسيريلانكا وماليزيا... اللوحات الأصلية لرسامين عراقيين وأجانب، المنحوتات التي صنعت من خشب أبنوس أو من عاج مطعم بالفضة والفيروز...
كل هذه الأشياء تبدو باهتة ولا معنى لها...
لا علاقة لها بالسعادة أو الفرح... كلها تتهاوى وتصير رماداً أمام حزنها... جمادات بليدة...ـ
اللوحات خرساء، علاماتها طلاسم مغلقة، ألوانها المتداخلة تربكها... لا تبوح بعاطفة ولا تمنح رؤيا... أم أن الخلل فيها هي نفسها...؟
حياة كانت تبذر في مسامعها بعض هذا...
كانت تقول:
ـ الممتلكات لا تصنع حياة سعيدة...ـ امتلكي العالم... ولكن أن لا يكون لك ما تتعلقين به... ستكونين أتعس الكائنات...
تصدق نبؤات حياة... لو كانت تمتلك شيئاً من اصطبار هذه المرأة وقدرتها على احتمال البلايا إذن لاستطاعت أن تفعل شيئاً جيداً لحياتها...
لابد لها أن تنتمي لشيء...ـ هذا ما رددته عليها...
تفتح النافذة... يا لطول ما نامت... ويا لتعب الجسد المسحوق... يا لذبول الجمال...ـ يا لفقر الروح...
تغشي الدموع عينيها ولا تعود تبصر شجرة التوت الضخمة التي تكدست حول جذعها الأوراق الصفر الذابلة وما عادت ترى الأوز في البركة الصغيرة جوار النهر...
اضطراب جسدها أضفى عليها هيأة امرأة ذاهلة تتحرك بعشوائية في أروقة البيت الكبير...ـ
جسدها ثقيل وموجوع... لا تؤثر فيه الموسيقى الناعمة التي تنبعث من المسجل...ـ
ترى أم توماس ما بها... الألم الدوري... والهالات الزرق تحت العينين...ـ البثرة الوردية في وجنتها...
تعرف أم توماس تقاويم جسد المرأة... وسطوة القمر... تعرف كيف يرتفع مد الدم الأنثوي وينحسر بفعل اكتمال القمر أو تبدله في منازله...
كانت تروي لها في طفولتها عن نساء أهملهن القمر في قرى الجبال البعيدة فلم يحظين بمد الدم ولم ينجبن القمر تجاهلهن بفعل خطيئة ارتكبنها...
وخدعن الرجال وجعلن بيوت أزواجهن قاحلة من غير أبناء...ـ

كانت البنات يقدمن الهدايا للقمر أو يذهبن إلى دير (مار متي) يستعطفن العذراء فتراف بأحوالهن وترمي في أحشائهن بذرة الولد...

لكنهن كن قد ارتكبن خطايا لا يعرفها أحد ووقفن بين نسيان القمر وجذب الجسد..ـ

تقدم لها أم توماس فنجاناً من مغلي النعناع فقد أدركت مرضها الدوري من هذه العلامات: الهالة الزرقاء والبثرة الصغيرة والدموع...

عينا سوزان لم تعودا عينا تلك الشابة السعيدة الحالمة... ثلاثون أو أكثر من دورات القمر مرت في جسدها والام لا تعد هصرت أحشاءها كلما اكتمل البدر أو ظهر الهلال..ـ

سبعون سنة خبرت أم توماس وجع النساء وآلام الجسد وعرفت سوزان أكثر مما تعرف سواها...

ـ خذي اشربي..ـ قد ينفع هذا...

ـ مذاقه مر... لا أحتمل المزيد من المرارة... أضيفي لـه ملعقة من العسل..ـ

ـ لا بأس... ولكن العسل يزيد آلامك... سأعصر فيه نصف ليمونة...

ذلك أحسن..ـ

ـ أم توماس... سأخرج... هيئي وجبة غذاء تليق بضيف عزيز...

ـ هل أعرفه؟

ـ ستعرفينه عندما أعود..ـ

تخرج سوزان وقد ارتدت ثياباً اعتيادية... خلواً من البهرجة وربطت شعرها وراء عنقها ولم تتزين بأية حلي واكتفت بلمسة كحل ومسحة من لون وردي على شفتيها وأخفت عينيها المتورمتين وراء نظارة قاتمة...

تقطع شوارع (المسبح) ثم تسير في الشارع المؤدي على المسرح الوطني لتدور حول الساحة وتدخل زقاقاً يأخذها إلى شارع (ابو نواس) حيث تغمرها أفياء أشجار اللبخ الريشية الأوراق وأشجار السدر والكاليبتوس المغبرة ترش ظلالها على إسفلت الشارع والأرصفة.

في لحظة تفكر أن تذهب إلى حياة في حي (المأمون) ثم تغير فكرتها..

تجتاز فندق الشيراتون وفندق الميريديان وتتوقف عند قاعة (دجلة للفنون)...

تسأل السيدة صاحبة القاعة عن لوحة لرسامة عراقية ذات قطع متحركة تشبه الرايات أعجبتها قبل شهرين...

ـ نعم إنها لوحة الفنانة هناء مال الله... أعتقد أنني بعتها لأحد

الهواة الأجانب... تعرفين اللوحة لا تمكث طويلاً، تبقى متنقلة من يد إلى أخرى، لدي لوحة تشبهها للفنانة نفسها...

تبحثان في اللوحات الممسندة إلى الجدران في المخزن..

ـ ها هي...

ـ أريدها... سأكتب لك شيكاً بثمنها...

لا تندهش صاحبة القاعة... فقد ألفت نزوات سوزان وغرامها المفاجئ باللوحات التي تعجبها ولكنها كانت تستغرب كل مرة لأن سوزان لا تساوم بل تدفع الثمن المثبت على (الفولدر) دون أن تنطق بكلمة...

تمضي... تدخل زقاقاً يأخذها على شارع السعدون حتى تبلغ ساحة القصر ومن هناك تنعطف يساراً ثم يميناً لتدخل سوق (البتاويين)... هنا كانت تأتي مع أم توماس لتشتري لها العصافير وتطبخها مع البرغل أو تشتري المونة الموصلية والزيتون وهي تعرف ضجة الباعة في محلات الخضار واللحوم...

تنعطف إلى زقاق يقع بعيداً عن السوق إلى اليسار توقف السيارة أمام باب حديدي مزود بنهايات حادة كالأسهم تتكرر على السياج الحديدي وبعد

الممر باب خشبي بطلفتين لـه نافذة مروحية بشكل نصف دائرة وعلى الجانبين

نوافذ مستطيلة وفي الشرفة العلوية محجرات مصبوبة وتظلل البيت والشرفة شجرة

سدر ومتسلقات نيلوفر بأزهار زرقاء بوقية الشكل...

اصبعها على الجرس... قلبها يخفق، الروائح تنهمر عليها من الهواء الساخن... روائح رز زكية، روائح سمك مقلي ومخللات... روائح ظهيرة بغدادية تتردد وتتكاثر وتتلون... رائحة الباميا والمحشيات... عشرات الروائح تتحد لتصنع تلك الرائحة التي تميز زقاقات بغداد في الظهيرة...

تفتح الباب الخشبي سيدة مسنة بدينة لها وجه مستدير أبيض تزيده الفوطة السوداء ألقاً لا يظهر جسدها في عتمة المجاز الباردة... عرفت سوزان أنها ازدادت بدانة عندما رأت ذراعها ويدها التي تمسك بظلفة الباب...

ـ مساء الخير...

ـ أهلاً... تفضلي بنتي...

ـ أنا سوزان... نسيتني؟... أستاذ غسان موجود؟

ـ نعم... تفضلي بنتي، مرحباً.. مرحباً أين كل هذه الغيبة؟

تنسحب المرأة وتفتح الباب الموارب لتتبعها سوزان في المجاز البارد نصف المعتم وتفتح باب غرفة الضيوف... أثاث تقليدي أنيق ونظيف وتفوح منه رائحة صباغ الخشب والهواء البارد...

ما أن تدخل حاملة اللوحة حتى يأتي غسان...

ـ سوزان؟ ... هل هي ليلة القدر؟
ـ بل ظهيرة القدر... قدري أنا..
ـ ماذا يجري في هذه الدنيا؟ .. ماالذي أتى بك إلينا؟ ... كيف تذكرت؟
أية عاصفة ألقت بك فوق بيتنا المنسي؟..
ـ متى تتوقف عن طرح أسئلتك؟
ـ عندما تجلسين وأراك.. وأتيقن من أنك حاضرة أمامي...
أنت سوزان بهجت أمين.. تعودين إلي... هكذا بدون مقدمات... لا أصدق...ـ لابد إن في الأمر خطأ ما... أو سراً ما لا ... لا أصدق...ـ
ـ لا تسخر... توقف عن هزئك... ليس من خطأ...
ـ إذن...ـ لماذا يحدث أن تأتي سوزان إلي بعد هذه السنوات؟
ـ خذ...ـ افتح هذه...
- ما هذه؟
ـ افتحها وسترى...
يمزق الغلاف الورقي الأبيض، يقلب اللوحة ويراها: لا يقول شيئاً، تلتمع مقلتاه بنظرة دهشة ممزوجة بالإعجاب والامتنان...ـ
ـ أهذا ما أتى بك إلي...
ـ ألا يكفي سبب واحد...ـ
ـ ربما يكفي... ولكن هناك سبب آخر...
ـ أأنت بحاجة إلى أسباب أخرى؟
ـ نوع من الطمع الإنساني والفضول البشري...
ـ أعرفك أنت غير هذا الذي يصرح بمطامعه...
ـ المطامع أنواع يا سوزان... وأنت تعرفين أن مطامعي غير مطامعك...
ـ بدأت تشتمني...ـ لن أفاجأ... هذا أنت... ولن أتحدث أكثر.
ـ لسنا بحاجة إلى الكلمات...
ـ نحن نعرف حقيقة... حقيقتنا...
ـ حقيقتنا؟.. أتعنين أنك تعرفين حقيقة غسان؟
ـ قد أكون واهمة... هل تأتي معي؟
ـ إلى أي مكان تشائين.. يروق لي اليوم أن أغامر...
ـ حتى لو رافقتني إلى المجهول...
ـ وهل أنت إلا المجهول أو اللعنة؟
ـ إذن هيا... مع اللعنة...
ـ سأكون جاهزاً في دقيقتين واستخرج الصور من حوض التحميض...ـ لن أتأخر أكثر من دقيقتين...ـ

تقول السيدة الكبيرة:
ـ هيأت لك ولضيفتنا الغداء...ـ
ـ أمي... سنخرج أنا وسوزان... لدينا أمر نريد أن نحسمه...
تسأله وهي في السيارة...
ـ ماذا ستقول عني؟..
ـ سأكرر ما قتله مراراً... أنت امرأة لا تعرف ماذا تريد من الحياة...
ـ أتؤمن بالمعجزات؟
ـ دائماً، هناك فرصة واحدة في حياة كل إنسان لحدوث معجزة ما...
ـ وإذن...ـ
ـ أنا أترك كل شيء للقدر ليمنحني معجزتي..
ـ متى صرت قدرياً يا غسان؟..ـ أحقاً هذا أنت؟
ـ صرت قدرياً عندما أمضيت كل تلك السنوات أنتظر هذه اللحظة...
ـ أكنت تتوقع عودتي؟
ـ كل يوم... وأنا لم أفاجأ بشيء...
ـ تذكرني بالست حياة...
ـ ست حياة؟.. أتعرفينها؟
ـ أتعرفها أنت؟
ـ إنها قريبة أمي... ابنة عم الوالدة...ـ
ـ حياة أم ميساء؟
ـ نعم... نعم...
ـ ولكني...
ـ نعم نحن في شبه قطيعة... حياة لا تزور أحداً... ولا تزار... منهمكة في حياتها وانشغالاتها...
ـ حياة...ـ حياة هي التي أعادتني إليك...
ـ ماذا؟ ... ما شأنها بك وبي؟
ـ هي التي هدتني إلى التشبث بإنسان بمعنى فما وجدت كائناً جديراً بهذا سواك...ـ
ـ وها أنت تعودين إلى الرجل الاحتياطي... أليس كذلك؟
ـ لا تسخر، ولا تقتص مني
ـ لا أسخر.. لكنك جعلت مني كائناً تحت الطلب... تندفعين على سواه ثم تعودين إليه...
ـ أنت إنسان مطلوب كل لحظة ولم يغب وجهك عني أبداً... أنت تعلم جيداً كم أحبك... تعلم كم أنا مولعة بك...
ـ لم أكن أعلم ذلك... فخلال السنوات الثلاث الماضيات لم

يحدث شيء يشير إلى هذا...
ـ ها أنا الآن... أمد لك يدي وما تبقى لي من حياتي...
ـ ولكن... ما الذي تعرفينه الآن عني... ما الذي تبقى منى فعلاً كي تحاولين الإمساك به.
ـ إني أحبك كما عرفتك... هكذا، كما كنا سابقاً...
ـ ولكن.. سوزان.ـ هل سألت نفسك إن كنت مرتبطاً بامرأة أخرى... وإن كنت تغيرت كل هذه السنوات؟
ـ ستهجرها من أجلي..ـ من هي المرأة التي توازيني... قل لي؟
ـ الكثيرات، لكن المرأة التي أحب لا توازيها أية امرأة...
ـ وأين هي.. أين هي هذه المرأة؟
ـ لا شأن لك بهذا..
ـ أهي هنا في بغداد؟
ـ متى ستتوقفين عن طرح الأسئلة؟
يمران أمام المسرح الوطني، النافورات قباب مائية من قطرات ضوئية.
النباتات نضرة مغسولة... والشارع باسفلته الذائب وأرصفته ذات الآجر الأحمر الرمادي المعشق تحتله عربات باعة الفواكه النادرة والسمك والرويبان..
يخيم الصمت عليهما طويلاً..
ينظر خلسة إلى جانب وجهها، يراها من الجهة اليمنى... الملامح الرقيقة الفاتنة التي تجمع بين وسامة الدم العراقي وشقرة العرق الأيرلندي الباردة، العنق الغرنوقي الطويل..ـ الذقن المستدير... الأنف في استقامته والرموش في كثافتها المثيرة...
زغب ناعم ذهبي يلتمع على الوجه مثل ضوء ذائب...
فمها مزموم، يود لو يقبلها... يتجاوز كل ما سببته لـه من آلام... يود لو يعانقها...
يبدو خائفاً، ومرتبكاً.. لماذا استجاب لنزوتها وصحبها؟
تختلس نظرة جانبية إلى وجهه المكدر وتتجه إلى الشارع المؤدي نحو المسبح...
ـ أستبقى صامتاً؟
ـ أتعلم كيف أغوص في عالمي وأفلت من عالمك..
ـ لكنك معي... فكيف ستفلت مني...
ـ سأعلمك كيف يفلت الإنسان من الفخاخ... سترين..
تضحك سوزان ضحكتها الصريحة الصداحة..ـ تضحك وهي تنظر إليه نظرة استغراب...
استدارت ثانية فرأى خط عرق رفيع جداً يسيل على

عنقها... ويرطب ياقة قميصها...
ـ سنصل...ـ أ ظنك تذكر بيتنا..
ـ تقصدين قصر بهجت الأمين...
ـ ما عاد كالسابق... لقد نال منه الزمن والأمطار والوحشة...
قامتها الرشيقة وجسدها الشهواني الغريب وآفة الزمن تنام في خلاياها، وهي تكافح الزمن بكل قواها... بعمليات التجميل والرياضة والوقوف عند عتبة الشباب التي امتدت بها ولبثت تتشبث بها...
لايبدو أنها ستتعرض لما تتعرض لـه النساء الأخريات من ذبول وترهلات لأنها تسخر ثرواتها وخبرتها لصيانة هذا الجمال ونحته وتطويره كأنها تملك منحوتة أو مادة قابلة للتبدل والتعديل والإضافة....
قال لنفسه:
ـ مع ذلك... فإنها ستشيخ في يوم ما...
تفاجأ أم توماس بدخول غسان إلى قاعة الضيوف...
تقول له:
ـ مرحباً، منذ زمن لم تشرفنا.. كيف أحوالك أستاذ غسان؟
ـ بخير... كيف أنت أم توماس...؟
ـ مثلما ترى... ها أنا.. عجوز تقترب من الموت.ـ
ـ أطال الله عمرك...
ـ أتسمع الموسيقى؟...ـ أعرف ماذا تحب... اسمع... أتريد أن تسمع...ـ
ـ لا... لا أريد أن أسمع شيئاً...
ـ مابك؟
ـ حسب ما أذكر... دعوتني للغداء...ـ فلنتحدث على المائدة... دعينا نستمع إلى صوتينا، هذا أفضل...
ـ أين تحب أن تجلس... هنا على الكرسي الرئيسي عند طرف المائدة...ـ أم تجلس قبالتي...ـ
ـ أجلس قبالتك... لست رب العائلة لأجلس عند طرف المائدة...
ـ حسناً سأراك أفضل...ـ
ـ أم توماس قدمي المشهيات والحساء...
ـ لا أريد حساء... سأكتفي بالسلطات...
ـ أتحب لحم الديك الرومي؟
ـ لا... أحب الروم دون الديكة...
ـ دعني إذن أقدم لك الأشياء دون أن أسألك... إنك لاذع السخرية هذا اليوم...ـ

(4)

بعد احتســاء القهــوة الــتي أعــدتها أم تومــاس لهم.. تعلن سوزان:

ـ أمنيتي منذ امتلكت هذا اليخت أن يضمني أنا وأنت في رحيل مؤقت وسط مياه دجلة...

ـ هل هناك فكرة رحيل مستديم؟

ـ ما رأيك؟...

ـ بماذا؟

ـ باليخت والرحيل..ـ

ـ أفضل الوقوف على الأرض التي أعرفها...

ـ ألن ترحل معي؟

ـ أين؟

ـ في اليخت وسواه؟

ـ ولماذا لا تلبثين معي ها هنا؟ الأرض أكثر منحاً للأمان... أكون ممتناً وسعيداً في حالة الثبات..ـ لا أطيق التأرجح في المياه...

ـ مشكلتك الثبات أما مشكلتي فإنها شهوة الترنح..ـ

ـ أنا أعرف ما أريد..ـ

ـ وأنا أعرف ما تريد...

ـ الأهم لدي أن تعرفي أنت ما تريدين..

ـ أنت تتعبني وتتعب نفسك...

ـ أحاول نسيان الألم الذي سببته لي طوال سنوات..

ـ وهل نجحت الآن في محو آلامك؟

ـ هناك سلسلة من الآلام لم تضعي يدك على أي منها بعد.

ـ سأحاول..ـ وسأنجح... أريد أن أكفر عن أخطائي..ـ

ـ وإلى ماذا ستصلين..؟ ماهو الهدف الأخير؟

ـ أن نكون معاً...

ـ لأي سبب نكون معاً؟

ـ أتحتاج إلى إيضاحات؟

ـ أكثر من أي وقت مضى..

ـ أريد أن نتزوج ... أتقبلني زوجة لك..؟

ـ لا..

ـ لماذا؟

ـ لأنني مرتبط بامرأة أخرى..

ـ خطيبة أم زوجة؟
ـ ليست هذه ولا تلك..
ـ ماهي إذن؟
ـ امرأة حياتي..ـ
ـ وأنا؟ ... ماذا أكون بالنسبة لك؟
ـ امرأة أحببتها ذات جنون..ـ
ـ سأحصل على الطلاق ونتزوج...
ـ لكني لا أريد الزواج..
ـ ألم تعد تحبني؟
ـ أيعنيك الأمر إلى هذا الحد؟
ـ أكثر مما تتخيل..ـ
ـ أحبك..ـ نعم لأنني لا أجيد الكراهية...
ـ وهل كنت ستكرهني لو استطعت؟
ـ لا أدري... لا أستطيع حتى لو كنت أهلاً للكراهية..
ـ ولكن... عندما نكون معاً أعني عندما نرحل عن هذه المدينة... ونذهب إلى أي بلد.
ـ إذا شئت أن نواصل الحوار فتجنبي نطق كلمة الرحيل..ـ
ـ لكن رحيلك معي سيختلف تماماً، سنذهب إلى بلد نختاره... ولا نضطر إلى الارتماء عند حدوده، لدي بطاقة تجارة واستيراد وتصدير، وأستطيع الحصول على فيزا لنا من كل البلاد... سنذهب إلى بلد جميل، المغرب مثلاً.. سنعيش أجمل حياة يمكن أن يحلم بها عاشقان..ـ نشتري بيتاً مطلاً على المحيط عند مصب نهر الرقراق قرب الرباط هناك سترى أجمل غروب في العالم... عندما تذوب الشمس في المحيط..ـ سنتجول في يخوت ومقاهي عائمة ويداعبنا مدُ المحيط الداخل إلى النهر... هناك سأكون معك ملكة العالم..
ـ ومن أين امتلكت هذه الثقة بقبولي فكرة الرحيل؟
ـ ستغير رأيك... أنا أكيدة من هذا... ستكون مصوراً شهيراً... وتقيم معارض.
ـ في طنجة ومدريد وبروكسل وباريس... وستفوز بجوائز كبرى... سترى وسوف تشتري صورك صحف العالم...
ـ أتعلمين..ـ افضل الموت هنا، في زاوية منسية على أن أغادر موقعي...
ـ أحبك..ـ أنا أسعد ما أكون... لم أكن بهذه السعادة في أي لحظة من حياتي... أريد أن تستمر هذه السعادة... أنت تعيد لي توازني وتملأني بالثقة بنفسي..ـ
ـ لماذا تفكرين بالرحيل إذن؟

ـ وهذه الماسأة الكبرى... الحرب؟ التي تكمن لنا في كل نفس من أنفاسنا؟

ـ الموت أيسر علي من المغادرة... ألا تدركين فكرتي؟ صوري هي لهؤلاء الناس لأنها عنهم... وبهم تكون...ـ

ـ أهي والدتك؟

ـ لا علاقة لأي أحد بهذا الاختيار، إنه أنا...

أنا الذي لا يمكنه أن يحيا بعيداً عن كل هذا الاحتدام وهؤلاء البشر الذين ينوؤون تحت وطأة عذابات الحروب...ـ

ـ لكن... كل رفض منك أو تأجيل لمشروع ارتباطنا... يعني لي الانتحار... ألن تتزوجني...؟

ـ كأنك تسألين أ تريد شرب الشاي؟

ـ أنا لا أسمع تبريراتك... إن شئت نعقد من الغد.. سوف أمنح عبد المقصود ما يريده لأكون معك ونرحل بعيداً...ـ

ـ هل انتهيت من حديثك؟

ـ لا... لدي الكثير لأقوله...

ـ ولا أملك الآن سوى كلمة واحدة...ـ لا...

ـ غسان أما زلت تحبني؟...

ـ يمكنك معرفة ذلك بنفسك...

ـ لماذا تبلبلني؟ـ

ـ لماذا تداهميني بكل هذه الأسئلة؟

ـ سأصمت.. إذا كان هذا يريحك...

ـ اصمتي...ـ اصمتي... أريد أن أستمتع بالصمت.

يدير غسان وجهه صوب النهر... تلفحه رائحة الماء الثقيلة، بخار النباتات التي تطلق روائحها المالحة والحلوة في شمس العصر...

كرسي الخيزران الذي يجلس عليه رطب بما يكفي ليتندى قميصه من الخلف... يتناول وسادة ويدسها وراء ظهره...ـ

تقف سوزان وراءه...ـ تنظر إلى النهر... ربما لا يكون هو النهر ذاته الذي تنظر إليه...

أمواج النهر التي ترسمها الريح تتكسر على حاجز من كتل الحجر... طيور الماء، النوارس ودجاج الماء... والغاق، تصرخ كلها ثم تطير... ببطء تنشر أجنحتها وتطير أو تنقض على سطح الماء.. أو تعوم فوق أعراف الموج ثم تنزلق على الموجة إلى قرارها... الموجات الصغيرة تلتمع تحت الشمس... يدا سوزان تلمسان صدغي غسان...ـ تنحني وتقبل جبينه...ـ

يحس برودة عرق يديها على وجهه... تقبله مرة أخرى وهي مغمضة العينين...ـ لا تريد أن ترى نظرته أو ردة فعله، تريد أن

ترى ما تراه هي، عيناه تبدوان مثل جرحين مضيئين والنظرة ألم شهي... لهب في الجسد... والروح تحاول استبعاد السعادة وإيقاف تدفقها في الجسد....

يسمع أنفاسها المتسارعة، يداها تهبطان إلى عنقه تغوصان في العرق الناضج وراء قبة القميص...

فمه يختنق بالرغبة وأظفارها تنغرس في كتفه وشعرها يطوقه...

يغمض عينيه مستسلماً لحنان أصابعها... ثم بغتة ينهض كالملسوع محاولاً الإفلات من رغبته وحنانها...

وجهه يقابل وجهها... تقبله ثم تبدأ بالنحيب...

يجلسها على الأريكة التي تتسع لعاشقين اثنين ويجلس إلى جانبها..

ـ أرجوك كفي عن البكاء...

ـ أحبك..

ـ ربما كان ما تشعرين به نحوي ليس حباً...

ـ ماذا إذن؟..ـ ما الذي أحمله لك بحق السماوات..؟

ـ شيء شبيه بالحب، التعلق، رغبة الثأر من الرجل الآخر..ـ ربما...

ـ أحبك..ـ وسأحبك دائماً..

ـ لكنك تمزجين الحب بشرط الرحيل...

ـ ألا تريد السفر معي حقاً؟..

ـ أريدك أن تسافري معي إلى..ـ إلى هذه الروح التي هي بنت المكان، وثمرة العيش فيه...

ـ إن لم نرحل... ستأخذك الحرب مني..ـ

ـ لن يأخذني شيء من الحياة إلا إذا كنت مهيأً للموت..ـ

تأتي أم توماس حاملة طبقاً بلورياً مليئاً بالفاكهة وتضعه على إحدى الموائد الصغيرة الموضوعة عند زوايا الأرائك...

ـ أم توماس... نريد شاياً كالذي كنت تصنعينه لنا من قبل..ـ مع أوراق نعناع طرية...

ـ هيأت كل شيء يا ابنتي... أعرف أن الأستاذ غسان يحب الشاي المنعنع... سأحضره حالاً... أعرف كل ما يحبه... لتباركم العذراء...

ـ ما الذي يبقيك هنا... قل لي الحقيقة... ما الذي يشدك إلى هذا المكان؟ خضت الحرب مرتين.. فهل ستخوضها مرة ثالثة؟..

ـ لا أدري... لست متأكداً... لكن إذا استدعى الأمر الوقوف بوجه غزو... سأخوض ألف حرب..

ـ أريد أن ننجو بأنفسنا... أريدك أن تأتي معي لنحيا ما تبقى لنا هناك...
ـ هناك أشياء في الحياة لا يمكن فهمها ولا تفسيرها وبالمقابل يصعب على الآخرين قبولها..
ـ ماهي...
ـ أشياء مثل الذكريات، التعلقات الصغيرة بالأماكن والروائح والفصول...ـ بالأمل الذي نريده أن لا يموت ولا يغيب عن أيامنا... عندما أغادر كل هذه الأشياء... أجدني مهزوماً من المهزومين... ضائعاً بين الضائعين..
ـ وتلك المرأة..؟
ـ أية امرأة؟
ـ التي ليست بالخطيبة ولا الزوجة، فمن تكون إذاً؟
ـ امرأة قد تعرفينها في يوم ما... قد تكتشفينها ذات صحوة..ـ
ـ هل هي إحدى أكاذيبك وحكايات زهوك، تهدف بها إلى إثارة آلامي وربما غيرتي...ـ
ـ ربما كان الأمر كذلك، وربما كان نقيض هذا...
ـ إنك تحيرني... أتريد إنزال العقاب بي؟
ـ ليتني أستطيع..ـ
ـ أتحب أن تثأر؟...
ـ أكره فكرة الثأر... إنها تمثل لي سلوكاً عتيقاً تسود معه قوانين الغاب... أنا لا أؤمن بالانتقام، بل أدع القدر يتكفل بكل شيء..
ـ في هذا الزمن الذي تفوق أحداثه الخرافة تتحدث بمنطق مثالي لا أراه مناسباً لما يجري..
ـ لو سلكنا طريق الثأر لأفرغت الأرض من أناسها..
ـ علينا أن ننجو بأنفسنا أولاً... علينا أن نذهب بعيداً... لماذا لا تريد أن تصدق جنون القتلة؟..
ـ من أنبأك بأني لا أصدق.. أصدق...ـ رأيت بعيني كيف غطى الأمريكيون لوحة الغورنيكا لبيكاسو بشرشف أزرق وراء ظهر (كولن باول) وهو يلقي معلوماته لكيلا تظهر ورائه صور الأشلاء وضحايا الفاشية... هكذا تخفى الحقائق...ـ ويشوه الفن... ويحولون بينه وبين إبلاغ حقيقة الأمر... الحرب... حربهم محو للإنسان والفن والحقيقة...
ـ معنى هذا أن حربهم قادمة لا محالة.. فلماذا لا تطاوعني ونهرب بعيداً؟... لماذا يا غسان...ـ لماذا؟..
ـ أينما ذهبنا فسنجد حروباً بأشكال مختلفة... أينما نذهب سنجدهم يهيئون لنا ما يفوق الخيال من أشكال القهر والإبادة...

لا تصدقي أن الأرض ستكون آمنة بعد اليوم..
ـ ولكن هناك درجات من الخطر...
ـ الخطر واحد في كل مكان... ثم إنهم مصممون على إبادتنا.. حربهم كما يقول أحد كتابهم، تبيد الحياة وتحفظها في آن معاً...
ـ كيف؟ الحرب تقتل..ـ هذا بديهي..ـ فكيف تحفظ حروبهم الحياة.؟ وكيف؟..ما هذه المفارقة؟
ـ مثل قصص الخيال العلمي التي لم نكن نصدقها، هاهم جنود المارينز يقفون في طوابير أمام ثلاجات المختبرات لأخذ عينات من سائلهم المنوي لحفظها تحسباً من إصابتهم بالأسلحة النووية والبيولوجية والكيمياوية...
يحفظون سلالة القتل ويبيدون كل من عداهم...
ـ هذا مروع.. إن جسدي يقشعر لمثل هذه الفكرة... فطيع.. وحشي..ـ إنه شيء مفجع...
ـ لطالما سمعنا عن أعاجيب وابتكارات علمية، لكننا لم نسمع عن مثل هذا الفعل العنصري... أيتها الحضارة المتفوقة كم أنت خسيسة ووحشية..
ـ غسان... دعنا نفكر في طريقة للخلاص..

ـ لا خلاص إلا بالبقاء هنا، فإن أبيدت سلالتنا نباد معها.. وإن نجت ننجو...
ـ لكن.. أنا وأنت ما مصلحتنا في كل هذا؟
ـ لن أجادل بعد في هذا...
ـ ألأنك تريد البقاء من أجل تلك المرأة؟
ـ أجل... ربما لا ثبت لها أنني ما تغيرت... وإنني ذلك الذي كانت تعرفه... أنا الذي سأغيرها... أنت التي توصلت إلى الاعتراف بأخطاء الأمس... فمن الذي تغير؟

****

الفصل الخامس

(1)

أنا رويدة، الموت أخذني، والموت أبقاني.. الموت أعطاني صوتاً من هواء... ها أنتم تسمعون صوتي خفيفاً راجفاً؟ طائراً...

لن أغفو... لأنني أقف في برزخ اليقظة... لماذا ينام من يرى كل شيء؟..

أنا أقف في الحاضر... زمني هو الحاضر فقط.. أراكم تترقبون الألم القادم من حروب قادمة...

لا تدرون ما تفعلون بأيامكم... لا تعرفون المستقبل... بل إن أكثركم يشك في وجوده مع ما تسمعون...

أنا أقف هنا... وأراكم... الكلمات ليست كلماتي... إنها تأتيني من حيث لا أدري من الهواء والمطر... ربما من النجوم.. لا أدري... من النار أو الرمل.. لا أدري.. أفضل شيء حصلت عليه الآن هو الشجاعة... أنتم تخافون، أنا لا أخاف شيئاً...

ما الذي يخيف الإنسان بعد الموت؟

لا أحس بالكلمات تخرج من داخلي..

إنها تأتيني من كل الجهات... عندما كنت حية لم أكن أجيد التحدث هكذا عن أشياء كثيرة.. كنت خجولة وخوافة... الآن أنا امرأة بشجاعة ما بعد الموت..

كنت أحب الحياة، أحب الحب... زوجي هشام عشقني طويلاً قبل أن نتمكن من الزواج، كان يلتقيني كل يوم بعد خروجنا من الكلية.. كذبنا طويلاً على الجميع وصدقنا مع أنفسنا... كان يقبلني في ظلمات المساء تحت شجرة... أو نختفي وراء جذع نخلة، كان يذوب في قبلاتي.. كنت أتلاشى تحت يديه... أريده أن يلمسني.. أن يأخذني أن يفنيني... أن يميتني ويحييني، عندما تزوجنا، أغلقنا بابنا أسبوعين، لم نر أحداً، أخبرناهم أننا مسافران إلى الموصل، وإننا سنقيم في أحد الفنادق...

اشترى هشام ما يكفينا من الإمدادات لفترة اختفائنا وأسدلنا الستائر وأمضينا أيام عشق لن تخطر على بال أحد...

كنت امرأة تحب أشياء كثيرة.. انظر الآن إلى جسدي الشفاف الذي يخترقه الضوء ساقي مبتورة، الأوتار التي تربط العضلات تتدلى متيبسة... نصف وجهي مهشم... لكني عندما ألمسه بيدي لا أجد غير النعومة والرقة القديمة...

لا أثر لجرح أو عظام مبتورة أو دم...ـ

كنت أقول لهشام:

ـ هنيئاً لي لأنني أعيش قربك..

وكان يقول لي:

ـ إذا حدث وفارقت الحياة قبلي فسوف ألحق بك بسرعة..

كان يقول:

ـ لن تموتي قبلي...ـ ثم يضحك... لا... لا.. سأقبل... لكي أتزوج امرأة جديدة تنعش حياتي بشبابها... أنت كبرت..

كنت أضحك من دعابته القاسية وينشق في قلبي صدع... هل حقاً يستطيع العاشق أن يميت ذاكرة روحه ويحتضن امرأة أخرى بعد معشوقته بهذا اليسر؟..

لا أدري... ربما يستطيع الرجال ذلك... أنا نفسي لا أستطيع...ـ ذلك أكثر صعوبة علينا نحن النساء...

سوف أخنق نفسي بيدي. كنت أقول سوف أموت فعلاً إذا سبقني هشام إلى القبر...

أتسمعون صوتي...!... يا حياة، يا ميساء، يا زياد...

أينما كنتم... أنا رويدة عبد الكريم... أم زياد.

أنا أراكم وأحدثكم...

وصوتي هو غير صوتي القديم فأنا ميتة وأصوات الموتى جوفاء كالهواء وبها رنين.. اسمعوني...

اسمعي وحده يطير حولي مثل فراشات الضوء...ـ يلتمع وينطفئ... في الهواء المطر لا يخيفني...(إنها تمطر الآن) ولا الرعد ولا البرق.. أنا الآن غير قابلة للبلل أو الحريق أو الخوف.

تحررت من كل الأخطار التي تخشونها..

ولكنكم لو تعرفون أية قوة يمتلك الإنسان الشجاع، لماذا تخافون؟...ـ لماذا؟..

جسدي المهشم لا يؤلمني...ـ وأعرف الآن أن الجسد لا قيمة له... ولا يحزنني هذا لأنني عشت لذائذ الجسد مع هشام طوال خمس عشرة سنة... ذلك يكفي..لدي خزين من المسرات في روحي...

لا قيمة الآن لجسد جميل أو غير جميل، القيمة لما تبقى منا... للروح وقدرة الرؤية... ومحاولة إنذار الأحياء بالظهور في أحلامهم..

ـ هل تسمعوني..؟

أنا رويدة... أنا رويدة..ـ حياة... أنا رويدة، أرجوك أنصتي إلي، إنها منهمكة في تصحيح كراسات الطالبات وميساء تعزف على ألكمان في غرفتها...

إنهم لا يسمعونني ... كيف أجعلهم ينتبهون إلي...؟

كيف... هل أطرق بابها؟.. لا... ذلك سيفزعها... لا أريد أن أوجع قلبها...

عمري الآن ثمان وثلاثون سنة حين قتلنا الصاروخ الذي انفجر بعد ارتطامه ببيتنا كان عمري أيضاً ثمان وثلاثون..ـ مرت اثنا عشرة سنة ولكني لم أكبر... أنا لا أزال في الثامنة والثلاثين...

هشام كان في الخامسة والأربعين حين قتلونا، لا يزال في الخامسة والأربعين.. ابنتاي إلتوأم زاهرة وزهاء احتفلنا بعيد ميلادهما العاشر قبل موتنا بأيام..ـ عمرهما الآن عشر سنوات..ـ

أراهما تلعبان لعبة القفز بين الغيوم..

وتضحكان أو تتشاجران..ـ أو تعدان النجوم واحدة..ـ اثنتان... ثلاثة... أربعة... عشرة..ـ مائة ... ألف...

شخص واحد من أسرتنا ظل يكبر ويكبر حتى بلغ السابعة والعشرين هو ابني زياد أضحك عندما أتصور الفارق بيني وبينه، إنه تسع سنوات..ـ بالموت أصبحنا شقيقين هو يصغرني بتسع سنوات ياللعجب، زياد لم يسافر معنا في رحلة النهاية..

التي أخذنا إليها الصاروخ (توما هوك)..

كان قد ذهب مع صديقه بشار إلى بيتهم في (الحي العربي) ليساعده في ترميم سقف البيت الذي تسرب منه ماء المطر... اشترى كيساً من الاسمنت واستعار عدة بناء من جارنا وذهب معه... كان زياد شجاعاً ومرحاً ولا يتردد في تقديم العون للجميع..

حياة... يا حياة...

ـ أنا رويدة.. أتسمعين يا حياة؟

يا الله ما أجمل حديقتك... يا حياة.. كنت أتفرج عليها عندما اتفقتم على خطوبة ميساء وزياد..

رأيت الحفل الصغير الذي أقمتموه في الحديقة، زياد يعلق الزينات الضوئية والبالونات الملونة وأنت تنظمين المائدة، تضعين أنواع الأطعمة والحلويات عليها... وقد زينتها بباقة ورد جميلة وأوقدت الشموع ووضعت صورة غالب على كرسي إلى جوارك..

ميساء كانت ترتدي ثوباً رائعاً، من اختاره لها؟.. أنت؟ .. مؤكد أنت لأن زياد لا يجيد مثل هذه الأشياء...

كنت أريد أن اقدم هدية الخطوبة خاتمي الثمين الذي لـه فص من الماس القديم... لكنه ذهب مع ما ذهب تحت أنقاض

البيت... زياد كان كريماً واشترى لها خاتماً جميلاً....

حياة... سامحيني كنت أغار منك كثيراً.. حتى حديقتك كانت مثار غيرة لي... الآن أرى أشجاراً كثيرة وشجيرات وأحواض زهور... هل زرعت المزيد من شجيرات (الجمال) عند الباب؟

سامحيني.. كنت أقطف بعض الزهور من فوق السياج الفاصل بين الحديقتين وأحياناً أقطف حبات تين أو ثمار نارنج كنت أسرقك... كنت أيضاً أخشى شيئاً آخر... اعترف به الآن.. أخشى أن تلفتي انتباه هشام كأنثى وحيدة..كان يعجب بك.. ويمتدح قوتك وجمالك الرصين... كان يقول لي:

ـ يالها من امرأة... هذه المرأة أعجوبة... لماذا لا تدعينها لبيتنا؟

فكنت أعتذر عنك:

ـ إنها لا تملك فسحة من فراغ لنفسها... ألا تراها تعمل ليل نهار؟ كان ينظر إليها خلسة ... أو هكذا خيل إلي... أراه أحياناً واقفاً لدى الباب عند الشرفة المطلة على الحديقة أو جالساً على كرسي يقرأ الجريدة وهو يختلس النظر إليك وأنت تعملين في الحديقة.. لعله كان يعتزم إقامة علاقة معك... هكذا فكرت.. لكنني كنت مطمئنة لأنك لن تستبدلي ارتباطك بغالب بخيانة خسيسة كهذه التي كنت أفكر فيها.. لم أفاتحه بشكوكي.... لكني كنت متيقنة من أنك شغلت تفكيره على مدى سنوات...

أعرف أني أجمل منك وأصغر... لكن أنوثتك وقوتك تجذب إليك الرجال... لقد أخفيت عنك قصة جارنا حمدي... الذي فاتح زوجي هشام ليحدثك عن رغبته بالزواج منك... فما كان من هشام إلا أن ردم على أعقابه حين أخبره أن زوجك قد يكون أسيراً... نعرف أنا وهشام أنك لم تصدقي خبر موته الذي شاع بل كتمته عن الجميع ليكفوا عن ملاحقتك..

كان هشام مشغولاً فلم يهتم بحديقتنا لذلك كنا نستمتع بالتفرج على حديقتك.. وكنت أراقبه من داخل البيت وهو ينظر إليك...

ثم أهملت الأمر، لثقتي بأنك لا ترين أحداً من الرجال جديراً بك بعد غالب... حياة.. عزيزتي... الآن يحق لي أن أكشف لك عن سر:

كنا نعرف أنه ميت، وأنك لا تريدين تصديق الأمر حتى لو صدقت فإنك ترفضين إعلانه...

غالب هنا... يقيم قربنا في البرزخ الضوئي يتحدثان هو وهشام عنك... وعن ميساء وزياد....

كان غالب رافضاً لسفر زياد، وكذلك هشام أما أنا فأعترف لك الآن:

ـ أنا التي دفعته للرحيل ومغادرة البلاد... أريده أن يعيش.. وأعرف أنني حطمت قلب ميساء... سامحيني.. ميساء شابة

صغيرة وستنسى ما فعله بها... لكن الحرب لو جاءت فلن تبقي ولدي حياً,..ـ سيأخذونه للحرب... لن تستثني الحرب أي أحد..

أنا.. كنت أدفعه للرحيل، أزين لـه السفر، أدعم أحلامه بالهرب من ارتباطه بميساء رغم علمي بما حدث..ـ سامحيني يا حياة.. لقد لعبت دوراً لا شرف فيه بفعل يأسي وخوفي على ولدي..

غالب وهشام يحاولان تقريب وجهات النظر بين ميساء وزياد... وأنا أحول دون ذلك.. لأنني لا أريد لـه أن يعود... إن شاءت ميساء فلتذهب إليه... ولكنك سترفضين... وسترفض هي...ـ أعرف كيف ربيتها على العناد.. أقنعيها... دعيها تذهب إليه ويتزوجان... حاولي... هل تسمعيني حياة...؟!

أنيسة هنا... أراها وقد استردت شبابها وجمالها.. وهي تتحدث إلى شاب في مثل عمرها وربما كان حبيبها الذي حرمت منه... لا أحد عرف بقصة حبهما القديم...

إنها تضحك، والشاب يداعبها... وهي تحدثه عنك... حتى هنا في البرزخ الجميع يتحدث عنك... فكيف لا أشعر بالحنق؟..

أنيسة تروي لغالب كيف كانت حياة تأخذها إلى الحديقة وتقدم لها الطعام تحت شجرة التين، وتبث فيها الأمل...ـ

أم غالب هنا... وشقيق هشام يجلس بعيداً في الجوار عند منعطف نهر الضوء كلهم قريبون هنا ومرئيون...ـ

عندما سقط الصاروخ كنا نشرب الشاي كان الوقت مساءً سمعنا أزيز الوحش القادم ثم ارتطامه في غمضة عين وانفجاره... كنا نأكل الكعك وقطع الجبن مع الخبز ونشرب الشاي... الصغيرتان كانتا تلعبان بلعبهما القليلة... لديهما دمية طالما كانت سبباً في شجارهما... دمية من القماش اشتريناها من أحد محلات الملابس المستعملة كانت نظيفة وجديدة، ترتدي ثوباً منقطاً ولها وجه مستدير منفوخ وملامحها مرسومة بقلم الماجك والخيوط الملونة...ـ فمها صغير مغلق، وكانت الصغيرتان تحاولان رسم فم ضاحك لها بقلم الماجك الأحمر...كان اسمها (دودو)... لا أدري لماذا أسميناها (دودو)... و(دودو) لم تكن تحب الضحك، وتصر على العبوس... وتنظر إلينا بغضب... وكانت زاهرة تضربها بعنف:

ـ اضحكي...ـ اضحكي..

لكن (دودو) كانت غاضبة وتحدق فينا بنظرات ازدراء كنت أخافها... هشام قال:

ـ إنها تتعجب من أحوالنا.. كيف نتحمل كل هذا القصف والموت والجوع والظلمات ونبقى ساكتين كالموتى منتظرين قدرنا بخشوع واستسلام... الدمية يا رويدة تستغرب ما تراه... لأنها دمية جاءت من بلاد أخرى لم يتعود الناس فيها على الإذعان للقدر..

كانت (دودو) تختفي أحياناً تحت المقاعد أو تضيع نفسها بين ثياب الصغيرتين...ـ أو تختبئ في صندوق كارتون بين اللعب

المحطمة المنسية وتجعلنا نبحث عنها طويلاً حتى نجدها...

ويبدو أنها لم تكن تحب العيش معنا، ولا تحترمنا لكنها كانت تحب الصغيرتين رغم العنف الذي تمارسانه عليها... كانت تحتمل عنف الصغيرتين، وتكره صمتنا..

في لحظة انتهى كل شيء.. انهار سقف البيت علينا ولم نجد ما يكفي من الوقت للاستغاثة.. أو لنلمس بعضنا، لنودع بعضنا... إنسحقنا تحت ثقل كتل الكونكريت بقضبانها الحديدية البارزة كأنياب الوحش... اخترق أحدها ذراعي وثقبها... وبترت قطعة حديد ساقي اليمنى من تحت الركبة....

هشام اختفى تحت قطعة كونكريت ضخمة... سمعت أنينه فقط..ـ ثم ناداني مرة واحدة...ـ

ـ رويدة... إنني أموت... أين أنت؟..

وبعدها صمت...ـ صمت تماماً.. فعرفت أنه نجا من الألم سريعاً..

أنا لبثت أتألم وأنزف على مدى ساعات في ظلمات المدفن الذي حفره لي الصاروخ، البنتان لم تصرخا... لم أسمع صوتيهما أبداً...ـ

عبرت النفق الضوئي...ـ أحسست أنني أعلو وأعلو ثم أرى العالم والبيت المنكوب تحتي...ـ رأيت الناس يتجمعون وقد جاءت سيارات الإطفاء و الإسعاف... بدأت الشفلات عملها بعد ساعات... انتهى الألم عندما صرت أرى الأشياء من مسافة أكثر ارتفاعاً...وجدتني بلا ساق... بحثت عن ساقي فعثرت عليها مهروسة بقطعة من الصاروخ وقد انغرست في قدمي قطعة معدنية مستطيلة مكتوب عليها (U.S.A FORCE) بصعوبة انتزعت القطعة المعدنية منها... وقلت ما نفع ساق مبتورة.. سابقى هكذا...ـ ألقيت القطعة المعدنية وسقطت فوق إحدى المباني الكبيرة، ربما فوق وزارة أو شيء من هذا القبيل..ـ

بعد برهة رأيت زاهرة وزهاء اللتين اختنقتا بفعل الضغط والعصف في غرفتهما لم تتشوها... كان أنف زاهرة ينزف بينما توقف أنف زهاء عن النزف وهي تحمل الدمية (دودو) وقد تشربت دم الصغيرة واختفت ملامحها الغاضبة...ـ سمعت زاهرة تقول لأختها:

ـ لماذا نحن بعيدتان عن بيتنا؟

فتقول لها أختها:

ـ أين نحن... أنا لا أرى بيتنا... أين نحن...ـ إنني خائفة..

عندها أسرعت إليهما... أعني طرت بجسدي الشفاف مثل غيمة وهمست لهما:

ـ أنا هنا... معكما... لا تخافا...

قالت زاهرة:

ـ أمي أريد العودة إلى البيت.. نسيت مصاصاتي وجواربي وقطعة الكيك التي بقيت من كعكة عيد ميلادي..

تسألني زهاء:
ماما.. أين زياد.... أريد أن أراه...
أهمس لها:
ـ اسمعي زياد لم يسافر معنا.. إنه هناك... في الحياة.. أما نحن فسنبقى هنا..لكننا سنراه... وسنسمعه.. أنتما ستبقيان هنا ولن تكبرا... هذا أفضل..ـ ستبقيان صغيرتين..ـ
.....
أتسمعين حياة...؟
يبدو أن لا أحد يسمعني إنني أتحدث للجدران والأشجار والنوافذ..ـ لبثت محلقة فوق البيت لحين عودة زياد من بيت بشار... كنت أشفق عليه من هول الصدمة، ماذا سيفعل حين يرى دمار البيت وموت الأهل؟
حياة، كنت أملي الوحيد، كنت أراك وقد عدت مع ميساء من زيارة قصيرة لطبيب العيون... فوجدت الكارثة بانتظاركما.. أغمي على ميساء...أسعفوها وأعطوها منوماً، أنت تماسكت وبكيت، ثم بدأت تنظفين غرف بيتك من غبار القصف... انهار جدار غرفة مطلة على بيتنا من غرف بيتك..
كنت تجمعين شظايا الزجاج والأواني المحطمة وتعيدين وضع الخزانات وحدك بعد أن نامت ميساء...
أمضيت الليلة تعملين علي إعادة الأشياء إلى مواضعها.. جاءتك (أم نور) لتقديم العون، أحضرت لك طعاماً وذهب ابنها لشراء أدوية لميساء من إحدى الصيدليات الخافرة...ـ
أرسلت لك أمنياتي..ـ ناديتك... ساندت روحك...
قولي لميساء أن تنسى... ساعديها لكي تتجاوز محنة حبها لزياد... زياد ولدي وأعرفه ما حدث حدث يا حياة فلا تجعليه يدمر حياتها.. كان يحبها حقاً... وخطبها... وكان يحاول التمسك بحبها عرفاناً بالجميل..ـ لكنه لم يتمالك نفسه وفعلها...
أنت منحت ولدي عمراً وحياة واحتضنته حين فقد الوعي..ـ وتهاوى أمام المصيبة صباح اليوم التالي لرحيلنا...
جاء مع بشار فوجد ما وجد..ـ كان بيتنا قد تحول إلى حفرة فارغة مروعة وحولها الأنقاض، ورائحة الحريق تحوم في الزقاق فوق أشجار النارنج واليوكالبتوس...
أنت تعرفين أن لا أقارب لنا في بغداد... أختي (نجود) تقيم في الحلة مع زوجها وأبنائها الخمسة... وعائلة هشام ما تبقى منها أحد..ـ أخوه استشهد في معارك ديزفول في الثمانينات، وأمهما توفيت منذ سنوات، اين أخ هشام اصطحب أمه ورحل بها إلى أخواله في مدينة شقلاوة الجبلية...
أختي (نجود) لم تفلت من الكارثة... أصيب أحد أبنائها باللوكيميا وفقد بصره..ـ وقد رأيته هنا.. كان يلعب مع زاهرة وزهاء... وجدتهم يلعبون معاً عند أشجار الزيزفون الكبيرة..

حياة... سامحيني... أعرف أنك معوزة... فكيف تحملت الإنفاق على ابنتك وابني حتى تخرجا من الجامعة؟...

كنت أريد تقديم العون لكني لم أجد الوسيلة.. انطمرت الحلي الذهبية وبعض النقود تحت أنقاض البيت..ـ

كان عندنا عشرة آلاف دينار في دفتر التوفير... قلت سيجد زياد طريقه للحصول عليها... لكنها ما عادت تساوي شيئاً الآن..ـ

من أفضل عادات زياد إنه كان يحمل في جيب سرواله أوراقه الثبوتية خوفاً من الانضباط العسكري فقد يظنونه هارباً من الخدمة لضخامته وطوله فهو في الخامسة عشرة لكنه يبدو في العشرين..ـ كان يحمل معه هوية الأحوال التي يسميها بطاقة الأهوال المدنية وشهادة الجنسية العراقية.. وكان يقول لي:

ـ أمي... لابد للإنسان أن يثبت براءته كل لحظة أمام الشكوك التي تحيط به...

كان جريئاً غير هياب..ـ ويمكن أن يدخل في شجار مع من يتصدى له... أعرف.... ذلك... قلت لـه قبل موتي:

ـ يجب أن تغادر إلى بلاد أخرى...

فقال لي:

ـ لن أغادر قبل إكمال دراستي... كان معرضاً للمخاطر.. أحدهم قتل في الشارع من أجل سلب سترته الجلدية، وامرأة قتلت بعد أن سلبوها حقيبة يدها وسلسلة ذهب تتدلى من عنقها... المرأة هنا وصاحب السترة الجلدية يقف هناك محدقاً بالأرض... لا أدري ماذا يرى حياة..ـ أنت لا تدركين كم أنا ممتنة لك...

أنت المرأة ا لتي أعادت الحياة إلى ولدي...

أنت التي منحته الحنان والمأوى والمستقبل..ـ

أدري كم تحملت من أجله...

لكنه خذلك ... وخذل ميساء...

كنت أنا في موتي أراكم... أنت وزياد تستمعان إلى عزف ميساء، وزياد يفكر بالموت..ـ موتى أنا وأبيه وشقيقتيه... كان الأمر قاسياً، بالغ القسوة يا حياة... لا يمكن لإنسان أن يحتمله، لكنك بما تملكين من قوة وحنان جعلته يتجاوز المحنة رأيته معكما يقلد شخصيات معروفة، يقلد ممثلين ومطربين وأناساً يتكرر ظهورهم على الشاشات...

وكنتم تستغرقون في الضحك... إنه ممثل بارع، مع إنني وأبوه كنا نريد لـه أن يدرس القانون... زرته في حلمه وحاولت أن أثنيه عن دراسة التمثيل لكنه لم يسمعني..ـ

عندما قبل في كلية الفنون رأى أنه من الأسلم لكم جميعاً أن ينتقل للعيش مع صديق له... أنت وميساء اعترضتما على ذلك، لكنه مضى في خططه ووجد عملاً مسائياً في محل تجاري...

أراد أن يتحرر من إحساسه الطويل بالعجز عن إعالة نفسه وتعويضك عما أنفقته عليه...

أنت غضبت عندما عاد ذات مساء إلى البيت وقدم لك مظروفاً به بعض المال..

تركته جالساً هناك ولم تنطقي بكلمة، وانصرفت لتصحيح كراسات الطالبات ثم دخلت إلى المطبخ لإعداد وجبة العشاء.

وعندما رأى إهمالك له... اعتذر... قال لك:

ـ تحملت الكثير من أجلي...

وقالت ميساء:

ـ لماذا غادرت بيتك.؟..ـ ما معنى ارتباطنا أنا وأنت؟

قال:

ـ لا يجدر بي أن أبقى عالة عليكما، بل ينبغي لي أن أكون المعيل..ـ فإذا لم أستطع فإن أقل ما يمكن عمله هو أن أعوض بعض ما أخذته...

كنت فخورة به... لقد فعل الصواب.. مهما يكن من غضبك فإنه رجل وعليه أن يتحمل المسؤولية كاملة... كان يحب ميساء ولكنه يريد الهرب من أرض المأساة التي سلبه أسرته...

كم أشعر بالخجل منك... لا أدري ماذا أفعل أعرف أنه كان يحب ميساء ولا يزال يحبها...

أعرف أن ما حدث بينهما كان بدافع الحب... لا سواه..ـ

هل أخبرتك ميساء بما حصل بينهما؟..ـ

إن لم تخبرك فلا تغضبي ولا تتخذي موقفاً قاسياً من ميساء الرقيقة الجميلة لا تعتبري الأمر سوى خطأ في التوقيت، كان بوسعه أن يتزوجها ويرحلا معاً لكنكما رفضتما ذلك فوجد نفسه مرغماً على السفر بمفرده...

أنا حزينة وآسفة لما حصل..ـ وسأحاول أن أعيده إليها... لا بدافع تصحيح غلطته.. بل لأنه يحبها كل الحب ولا يستطيع نسيانها... سأجعله يغير خططه في الغربة، ويعود... ولكني لا أعدك بشيء الآن، فإنه قد يرفض العودة في هذا الظرف القابل للانفجار...

سأحاول.. سأدفعه للعودة... وإن فشلت، فإني سأفعل ما أعتبره اعتذاراً من ميساء العزيزة... سأبذل كل جهدي لأعيده إليكم... سأعيده يا حياة... لابد أن يعود... سامحيني..ـ هل تسمعين؟

ستسامحيني..ـ على كل ما فعلت ومالم أستطع فعله..

******

الفصل السادس

(2)

مثلما اعتادت حياة في ليالي تبتلها الطويلة. تقوم بتصحيح توقيت الساعات وتضبط حركتها ليتسق سريان الزمن مع جريان الدم في عروق النساء، عروقها هي وعروق ميساء، أو لعلها تسعى إلى ضبط اندفاعات الحياة في دمائها بضبط حركة الساعات وتقنين الزمان...

العناكب الصغيرة الخوافة التي تنسج لها غرفات مستديرة في زوايا الجدران عند التقاء جدار بآخر كانت تتهاوى هي ونسيجها على الأرض عندما يبدأ القصف وتهتز الأرض وما عليها، كذلك كانت الصور العائلية صورة زفاف حياة وغالب وصور أهلها الراحلين وابنتها وهي رضيعة أو وهي طفلة في الروضة كانت ترتجف وقبل أن تسقط تنزلها حياة وتضعها فوق المنضدة ثم تعلقها بعد توقف الانفجارات..

لم يكن الحاضر وحده مهدداً.. بل إن الخراب كان يطال كل ما تبقى من الماضي فتمتد براثن الحرب إلى الذاكرة المؤطرة في الصور الفوتوغرافية.. تمتد البراثن إلى المقتنيات الصغيرة والثياب مثلما ستمتد إلى أحلام غدهم المتهاوية بفعل ارتباك الحاضر وعذاباته وتشوشه...

عنكبوت واحد بقي متشبثاً بعرشه المهلهل في حين ذوت نباتات الحديقة وماتت خلال ليلة أو اثنتين وتيبست بعض البراعم وادركت حياة أن الأشجار يطالها الرعب في ليالي القصف وتعبر عنه بمساقطة أوراقها في غير أوانها...

في الحرب السابقة قبل أن يغادرها غالب في ميادين الحرب، كان الحب شغلهما الشمسي وكان كل ما يدور سبباً في انشدادهما إلى بعضهما، الموت والقصف و الحرائق كل ما يحدث يدفعهما باتجاه النجاة في مياه الحب المضيئة... ليوقفا تدفق النيران الموت باتجاه الحياة..

الآن تنشغل بتصحيح الزمان التي اضطربت وتناثرت لحظاته، تقوم بذلك عندما يستتب الهدوء الحزين بعد القصف،

وينتشر ذلك السكون الأسود فوق جنبات الليل تحدث أشياء كثيرة بعد القصف... تمر سيارات الإسعاف...

يتساقط الليل من ثقب الأوزون مجروحاً... يتساقط الحاضر مضرجاً ليصير ماضياً تمحى بيوت بمن فيها... يتفجر نهر من دم طفلة في أواسط الحلم... حرائق تتعالى مسقطة ظلال النار على رماد الموت..

تنظر حياة إلى جسد ابنتها الصغير المرتعش، تضمها إلى صدرها وتحضن الجسد المرعوب، تدعك بأصابعها البشرة الناعمة ليسري الدفء من أمومتها إلى أعضاء الفتاة الراعشة...

حين يطول ارتعاشها تعطيها حبوباً مهدئة...

تدثرها في السرير، فتدخل ميساء عتبة الكابوس الأول... تخرج منها إلى عتبة الكابوس الثاني ويتشنج وجهها ربما تصرخ بلا صوت... ربما كانت تسقط من مبنى مرتفع، أو تتعثر بجثة...

الأم تستعد وتتفانى في أداء دور المضحية...

وتقدم كل ما يمكنها لتكتمل حياة الابنة ونضجها..

تفكر حياة بأنها هي التي ارتضت كل هذا الذي تكابده الآن... أن تموت في انتظاره أن تموت وهي ترعى ابنته، أن تموت موتها هي آخر الأمر..

وكانت ستموت في كل الأحوال، فلماذا لا تقدم ما تقدمه للاثنين العزيزين قبل أن تموت؟

نادراً ما كانت تفكر بنفسها، لم تسمع ما تقوله النساء الأخريات عن الحياة، حياتهن:

إنها حياة واحدة نحياها.. فلماذا هذا الجنون؟..

أي جنون يقصدن؟ لم تكن تدري، أهو استشهادها اليوم في إدامة حياة ابنتها وأمل عودة غالب وخدمة حديقتها؟... أم هذا الإغفال الطهراني لنفسها ومطالب النفس؟

ترى الأمهات الأصغر (كانت هي في نحو الرابعة والثلاثين حين قامت الحرب الثانية) يحملن صغارهن والصغار يتغذون من أجسادهن... ينمون مثل نبات طفيلي على جذع لشجرة ناضجة ويمتصون النسغ من البراعم والأوراق والثمار...

يرضع الطفل وينام ... يرضع ويتبول، يرضع ويصرخ، يرضع ويتبرز ... ويرضع ليكبر ثم تتحول المرأة إلى شيء آخر منسي بعد أن كانت تغذية العالم وتنمية الكائنات شغلها الشاغل...

العالم الذي غذته وغسلت أوضاره وتحملت سوءه.. يساقط عليها ثمار عقول عباقرة الموت قذائف باهرة الانفجار وصواريخ تخرق الأرض. وهي تغذي الوقت ببذور روحها وبراعم جسدها الشمسي...

ترى الأمهات الأكبر سناً في ثياب الحداد بعد موت الرجال والأبناء في الحروب وسواها... واجبهن الأخير المضي في الحداد حتى آخر نفس....

الأصغر سناً يفركن الثياب من قذارات النهار الدنيوية ومن إفرازات الجسد الحي في شهوات الليل..ـ والطفل يرضع وهن يعملن ليذوي الجسد وينسيهن السعادات التي وعدتهن بها السماء...

ـ أين أنا؟... ما الذي فعلته وأفعله لنفسي...؟

لا تعرف جسدها إلا حين يصاب بعارض ألم أو عندما يهده العياء... لا تذكر جسدها إلا حين تغتسل في المساء بل إنها تتجنب التفكير فيه...

ـ أين أنا؟...

في ليالي القصف في الحرب السابقة كانت ترضع ميساء من ثديها الممتلئ، وكانت أمها تحذرها:

ـ لا ترضعي الصغيرة هذا الحليب الخوف يحوله إلى سم.

تستبدل رحيق الجسد بحليب مجفف حتى جف حليبها وضمر النهدان الممتلئان..ـ لم يتبق من ذلك النبع الأبيض سوى قطرات شحيحة... كانت ميساء تعافها بعد أن اعتادت الحليب المجفف... تذوق غالب تلك القطرات وانتشى بها كانت تعصر حلمتها في فم الصغيرة عندما باغتها وارتشف آخر القطرات... قال لها أنت أم الكون كله..

تلتصق ميساء بجسد أمها وتطوقها بذراعيها... تتوق إلى أمان ما قبل الولادة، يوم لم يكن هناك خوف ولا جوع ولا كوابيس ولا إدراك لما يحدث في العالم...

النساء وحدهن يعرفن ما يحدث لها في الليالي الممتدة من أول الحرب حتى آخر ليلة قصف الساعات تعرف أيضاً... وهي تقوم الآن لتصحيح جنون الزمان، ستوقت الساعة المنبهة، وساعة الجدار المربعة، ستوقت كل الساعات، لتنسى ساعة جسدها التي تنبض بلا توقف وتشير إلى عمرها المهدور مع كل نبضة.

تغبطها النساء الأخريات على بسالة القلب واصطبار الجسد، يحسدنها على صمتها المكابر وينسين جرس صوتها المجروح...

صلف الحياة يدفعها إلى قسوة التعامل مع نفسها، وبعض الرجال يتشهون أنوثتها الموشومة بالأسى ويلوحون لها بما زهدت فيه.

تشتري لميساء حمالات صدر، (منهدة) صغيرة من نسيج قطني موشى بتطريز رقيق..ـ تقول لها

ـ جربيها، هيا لا تخجلي..ـ

ـ لماذا؟ ألم يخلقنا الله هكذا؟..

ـ ينسى الناس هذا ولا يتذكرون غير ما يريدونه من النساء...

ـ لا أريدها، ستخنقني..

ـ لابد أن ترتديها، ستمنع تحرك صدرك عندما تسيرين.

تحس ميساء وكأنها تهيأ للتضحية بها.

كانت أمها قد رأتها تسير وهي تضع محفظة كتبها على صدرها شأن المراهقات حين يخفين براعم الأنوثة عن عيون العابرين.

ذباب الربيع يتجمع حول زهور البتونيا والأقحوان ويواصل الطنين حتى الظهيرة، يتدفق في جسد الفتاة سيل من الارتباك وما يشبه الأنين وتترقرق في روحها مياه الحنين لأشياء مجهولة.

لا تجرؤ على قول ما تحسه والربيع يؤجج جمراته في فؤادها، لسعة حارقة في الأحشاء، بشيء ما يكتسح الجسد والدم، شيء غامض وشهي يستيقظ مع شذا قداح البرتقال والجوري... وحياة تضبط الساعات..

عينا غالب في صورة زفافهما تنظران إليها، عيناه تثيران في ربيعها المستفيق كل ماكانت تثيره لمسة أصابعه..

كان يتشمم عبير أنوثتها الصافي يفوح من الجلد الدافئ المغسول... ويتنشق أنفاسها التي من نعناع ومسك... فإذا ارتشفها تحولت إلى شهد ورحيق..ـ

ـ تحدثي إلي..ـ أحب الكلمات التي تشتقينها ببراعة من اللغة القديمة المألوفة... اسمعيني كلمات لم ينطقها أحد....

تهمس لـه بكلمات لا معنى لها... تراكيب من الحروف الموسوسة، (سناسيما)... (وسونا)... (سيما)... (سابيس)...

وكان ينفجر بالضحك وينتشي..ـ يقترح معنى لكل كلمة مبهمة ويسجل ابتكاراتها في دفتر صغير أسماه(لغة حياة)...

قاموس لحظات الحب الذي تتهاوى فيه أصوات الحروف مطراً وتلتصق بالجسد والحواس أو تمتصها الشفاه قطعة حلوى..

(سروسا)... (سماووسي)...

رحيق لغة، يذوب... على اللسان

تنكب الكلمات على سفح الليل وتتشبث بهما...

تمضي بهما إلى حيث شاءت، إلى حيث شاءا معاً...

يفيضان لغة سماع، تطربهما الوساوس...

سكر الأنوثة يتقطر على راحة يده...

الكلمات الرحيقية تنسكب على مديات الليل..ـ

خلال ساعات الليل تجن الساعات..

تضطرب وتتسارع أو تتوقف وتطلق المنبهات رنينها المعدني أو صريرها الإلكتروني..ـ ساعة يد حياة تطلق نبضاً مثل وخزة خفيفة يسري من يدها إلى معصمها فتدرك حياة أن قذيفة ما أو صاروخاً يتجه نحو منطقة قريبة...

أو أن أرواحاً اغتيلت في جولة الموت وهاهي تحوم في منعرجات الكون أو تتعذب في مرتقيات الاحتضار...

ساعة غريبة هي تحفة البيت الوحيدة الباقية من زمن السعادات الأفل... كانت هدية غالب لحياة في الذكرى الأولى لزواجهما...

نسيتها حياة ردحاً من زمن الرعب، كانت الساعة مخبأة في خزانة الثياب، لكنها تتذكرها عندما تنهار الخزانة بعد سقوط الصاروخ على بيت زياد...

تجدها متوقفة خرساء، لا تشرق فيها شمس ولا قمر وهي التي تقود أيام الحب في مرتقيات الشمس والأقمار وتضبط مواقيت الأيام والشهور والسنين والهفوات والأشواق... كانت أعجوبة ميساء في طفولتها وهي ترى فيها شمساً ذهبية تشرق في أعلى مينائها البيضوي الذي لـه لون السماء وتدور الشمس على قدر ساعات النهار وعند الغسق تحمر حوافها وتضرب في محيط معتم وسرعان ما يبزغ قمر فضي ينير الأعالي ويتبدل في منازله حتى ينتهي الشهر القمري...

كانت حياة تحدد ميعاد دورتها على حسب تحولات القمر في منازله، وتعرف متى يتعالى المد في البحار وجسد المرأة...ـ

قال لها غالب:

ـ صنعت في إحدى مدن الهند ربما في حيدر آباد، أو كيرالا... أحضرها أبي من إحدى رحلاته إلى الهند، كان يطيل مكوثه هناك حتى ارتابت أمي بوجود زوجة هندية يزورها كل عام...

وعندما أحضر هذه الساعة لم يعد بعدها إلى الهند لعله (كما كانت تتمنى أمي) انفصل عن تلك الهندية الجميلة ذات الساري المطرز و الضفيرة السوداء.. كانت أمي تشم في ثيابه رائحة الياسمين والزعفران وهما لا يستخدمان إلا لتجميل العرائس في الهند، يدعك جلد العروس بعجينة من الياسمين والزعفران لينعم ويطري ويتعطر...

كانت تتراءى لها حفلات عرس هندية وفتاة محمولة على هودج فوق فيل أبيض...ـ (بالأحرى كانت تعيد صنع المشهد الذي رواه لنا والدي عن أعراس الهنود) وكان الوالد راوياً بارعاً... ولطالما روى لنا قصصاً مدهشة عن بلاد الهند ونساء الهند الجميلات...

كان يقول:

ـ إنهن أجمل نساء الأرض...

وكنا نشاكسه:

ـ وماذا عن أمنا؟

كان يضحك ويقول:

ـ لو رأيتم جمال نساء كيرالان، ونساء مدراس وكوجرات... إنهن لا يوصفن لجمالهن الفائق... أجمل نساء العالم..

كان يحدثنا عن الفتيات في ثياب الساري الشفافة المطرزة بالبروق وهن يجمعن زهور (الجكرندة) و(الموهور) وينظمنها في عقود وأكاليل للأفراح واستقبال الضيوف أو لارتدائها في

الأعياد، أو لوضعها على جثمان ميت قبل حرقه..
كان يقول لي:
ـ سأزوجك من فتاة هندية، إنهن حوريات الأرض...
يضحك غالب وهو يتذكر أحاديث أبيه عن جمال النساء، يقول لها:
ـ تزوجت هنديتي حياة... أنت تشبهين نساء الهند...
ماكانا في ذلك العهد يعبأان بحركة الزمان، فكل الزمان ملك أناملهما ومباهج القلب...
وكانت ساعات السعادة تمر خطفاً كالبرق أو تذوب ذوباناً في الهواء أو أقداح الشاي... ساعات شفافة كالغيم الوردي ورقيقة كجناح فراشة سرعان ما يتفتت عند أول لمسة ويتلاشى في الفناء...

(3)

القمر مقتحم بغمائم زرقاء.. خطوط من غمامة رمادية تشطر البدر النحاسي وحياة تحمل طبقاً بلورياً صغيراً به بضع ثمرات من المشمش، إحدى الثمرات لها لون كهرمان مضيء وبها أخدود فاتن الاستدارة مرقط بنقاط أرجوانية...
تناغم مدهش بين اللون واستدارات الشكل بين عبير الثمرة والنور الذي يشع من لونها الشمسي...
تحمل حياة الثمرة بين الإبهام والسبابة، ترى فيما وراء القشرة نبضة الضوء الخفية التي ما بين شهوتها ولذة الثمرة...
تعزف عن تناول الثمرة، الجمال لا يؤكل والفتنة تغري بالنظر والشم والسمع، الفم يستغرق في الصمت... طائر الرغبة يغفو على الأصابع الفم صائم صموت.. وحياة ذاهلة عما يرى والثمار مغوية لليد والفم صائم صموت...
الصوت الذي كان يأتيها في ليلة الأمس من حيث لا تعلم... الصوت الغريب كان يتجول في ذاكرتها... يوقظ كآبات الروح ويرجف الجسد... الصوت حرب أخرى عليها...
تنصت الآن، تصغي بالحواس كلها...
لا همسة تنبع من السكون، لا نبرة تعلو على هسيس الصمت...
القمر يتعالى ويزداد سطوعه الأحمر، تفض السحب عنه حصار الماء... أكان صوت رويدة حقاً...
يا للأصوات كم هي خادعة!.. صوت رويدة الآتي من وراء برزخ الموتى أحدث صدعاً مرعباً في نفسها... لا.. ليس للموتى أصوات، وحياة تحاول التثبت في موقعها من الليل وتنصت، تنصت لتتيقن من وجود ذلك الصوت...
هل جعلتها أحزانها ونفاذ الصبر تتوهم سماع تلك

الكلمات؟...

قال الصوت أشياء لا تعرفها، قال الصوت أسراراً.. فكيف لها أن تختلق ما لا تعرف؟..

نبرة الصوت فارغة هواء، أثارت غثيان حياة، ميزت في النبرة شماتة المراوغ والمحبة الزائفة..

أتراها هي التي تتخيل صوتاً وتنسبه لرويدة؟

لا تدري... أيكون هذا بداية التدهور في قواها؟... لعلها لوعة أمومتها وهي ترى ميساء تتأكل في أشواق الحب المنكسر تدفعها لاختراع كل هذا الوهم ولكن لو كان بوسعي سماع رويدة، وهي تدعي أن غالباً معهم في برزخ الموتى فلماذا لا يخاطبني غالب؟

هل يحاول الصوت تدميرها هي الأخرى وإسقاط حجة الأمل، وإيصاد كل باب للرجاء؟

لماذا لم يحدثها إذن؟

كان يناجيها بصوته الذي تحبه، الصوت الذي فيه خشونة وعنفوان ورقة هوىً... كان يسكن صحوها ومنامات الليل، فلماذا لا يخاطبها الآن ويهتف بها...

-ها أنذا آت إليك، حياة..ـ اشرعي النوافذ والأبواب،... زيني السرير بزهور البرتقال..ـ اغتسلي وأسدلي شعرك الطويل..ـ ثم ابسمي قميص المسرات وانتظريني....

كانت تنتظر كل ليلة أمام النافذة، وتتوقع أن تطرق يده الباب... أن يبشرها بانتهاء الحروب، ويهتف بها:

-ها أنا عائد إلى الحياة.. مضى عصر الخراب والجنون الأسود..ـ

كانا سيتبادلان القبل، ستكون قبلاً أشهى وأمتع بعد سنوات الأشواق العسيرة سوف يلمس عنقها، ويضع إصبعه في التجويف الصغير أسفل عنقها وتحس بالدغدغة العذبة الحنون..ـ سوف تساله:

-ما الذي أخرك كل هذه السنوات؟

قد يشاكسها على ما اعتادت منه ويقول:

-ضللت الطريق إلى الحياة.. إليك...

وكانت ستغضب، وإلا فكيف يتيه الحي في حياته ويستبقيه هاجس الفرار إلى الموت؟

ربما كان سيحدثها عن سنوات الأسر الفاجعة، عن انمساخ الإنسان في شهوات وحشيته..ـ

وقد يروي لها حكايات لا تتوقعها، عجائب وأساطير عن أشواقه ولوعة الجسد المهجور في الكهوف، سيقول لها أشياء لا رابط بينها، تداعيات عقل مضطرب ألمت به بلايا الحرب، حكاياته مفككة وصوته مخذول، ونبرته كأنين القصب في الأهوار ستصغي إلى هذياناته ولن تتفوه بكلمة...

ستقول لنفسها:

-حسبي أنه عاد إلي...

ستلوم القلب لأنه يتبع فضولها ويسعى إلى معرفة كل شيء عن سنوات الغياب... ليلتهما الأولى ستكون ليلة عشق..ـ

سوف تتعرف فيه إلى الرجل الجديد الذي صار إليه...

ربما ستنفر من رائحته الغريبة، الرائحة ألفة سنوات واشتباك خلايا الجلد مع العطر والصابون والجلد الآخر..ـ سوف تصدمها الرائحة، لذا ستطلب منه أن يستحم طويلاً ليلقي بأوضار الحرب في المجاري ويقف طاهراً من سبة القتل... لن تلمسه قبل ذلك... عليه أن يتطهر من سنوات الفتك والأسر والعذاب...

سيحدثها عن الأماكن المريعة التي افترست أيامه.. عن تلك السجون أو الكهوف التي كان يلقى فيها الأسرى ويحرمون داخلها من الرؤية والسماع والاتصال بالعالم الخارجي، نقطة ضوء واحدة من سماء قاصية كانت تنعش الأمل في قلوبهم لذلك كانت رؤية سماء أو شمس أو نهار إحدى وسائل المكافأة على السلوك القويم حسب ما يراه السجانون..ـ

لم يشم هناك رائحة عشب ولا عطر زهرة ولم يستمتع بدفء نار ولا برد نسيم ولا لذة مذاق، كل ما وهبته الأرض للإنسان يسلب منه، كل ما أتاحته الحضارة ليده، يمنع عنه... وشيئاً فشيئاً تتبدد الحياة في ذلك الجب، وتذوي الذاكرة، وتشحب المخيلة التي تنشط في بادئ الأمر، وتستحضر المتع والنساء والمذاقات... ثم تتهاوى ويرفرف طائر الهذيان الأغبر بين العينين والحواس..

هل تسمعه الآن؟..

لا.. إنها تتخيل صوته الأليف الذي يثير أشجانها ويرعش جوانحها..

يسمي البلاد التي بددته غابة النار، أو أرض الملح السوداء، يسميها دار الارتداد يسميها ويسميها..

ستراه وهو يدير رأسه باتجاه شروق الشمس فلا يرى غير الظلمات التي تصوغ هيات الجبال ولا يرى غير الرماد يحدد أشكال الأجساد والغيم يحدد آفاق السماوات كل شيء محدد بشيء..ـ لا شيء حر بذاته ولا أفق طليق بأبعاده..ـ

تراه ينحدر على جرف ويسير أياماً في شعاب جافة بين الأشواك والحجارة والأفاعي تراه يتسلق جبالاً وتنهكه المسيرة الطويلة فيتهاوى على السفح الآخر في المجهول...

هل أسروه حقاً؟... من يدري..

غير أنها بعيني حدوسها تراه في قرية صغيرة بائسة، تتعطف عليه امرأة في ثياب غجر الشرق وتسأله وهو يفيق من العياء...

-آب..؟

-يومئ لها بعطشه الدهري... أن نعم.. أريد ماء

تسأله: نان؟

يومئ لها بجوعه.. إن نعم أريد كسرة خبز..ـ

لا.. لا.. تفضل أن.. لا.. هي لا تفضل شيئاً.. فالتفضيل بين تنويعات العذاب والغياب أمر مضحك.. فأما الحياة وأما الموت..ـ لا.. إنها تريد الحياة.

عليها أن تهيء عجين خبز الغد، وستعود إلى هنا لتنتظر لعل الأصوات تأتي..

(ولكن ما الذي سترويه لي يا غالب عندما تعود؟)

تحاول أن تضع وعيها للأشياء في وعي الغائب الخاسر وتستدرج صوته لما تتمنى أن يحدثها به..

وجهه.. وجهه الوسيم الذي ستفنى العذابات رونقه، تحاول أن ترى ما آل إليه الوجه وما جرى لوسامته..

سيكون لـه وجه كهل مهدم..ـ ستبدو عيناه المشعتان مطفأتين وقد غارتا في محجريهما وتيبس جلد وجهه وتغضن...

(يا إلهي...! هكذا سأراه؟)

كيف سأراك عاجزاً ومنهكاً ومحطماً وربما معوقاً تقود خطاه عكازتان هما آخر ما منحته الحرب من مكارم البقاء...

شبح.. سيعود إليها شبحاً لرجل كانت تعرفه ولن تعرفه... كيف لا تعرفه؟

الرائحة تتغير في عذابات الحجر وظلمة الكهوف...

اللون يتبدل، النظرة تقتلها ارتداداتها عن الجدران...

غالب ألا تسمعني صوتك..ـ

رأت أسرى كثيرين عادوا بلا ذاكرة، وقد تساقطت أسنانهم وابيضت رؤوسهم وجحظت عيونهم وتضاءلت أجسادهم كأن الحرب حشرتهم في آلة للمسخ وطحنتهم وأعادت تشكيلهم من بقايا ما تبقى منهم.. يد مبتورة أو ذراع بلا معصم، قدم مهروسة وجذمة ساق.. نصف وجه وعين لا ترى غير الذي يراد لها أن تراه... لا شيء يرى غير الظلام... مسوخ تقوم من أضرحة الأسر، تشق الأكفان واتفاقيات جنيف لتبادل الأسرى وتعود لا كما كانت بل كما شاءت لها شرعة الحرب أن تعود... مغسولة الذاكرة.. مثقوبة الروح.. كل ما يأتي يتساقط من ثقوب النفس، الجسد منخل لا يستبقي سوى الكلمات التي ترسبت في القعر كلمات عتيقة منسية لا معنى لها... يجدون فيها راحة غير مشروطة، وقد دفعوا الأثمان منذ ولادتهم الأولى وولادتهم الثانية وولادتهم الثالثة...

زارها قبل يومين ضيوف من أقارب منسيين، امرأة بمثابة عمة لها وهي ابنة عم أبيها ومعها أخ لها اسمه (سعدي) عرفت فيه حياة حطام أسير أعيد إلى الوجود بعد إتمام مسخه وضبط إجراءات دمجه في الحياة الساكنة المستتبة التي تقع حدودها ما بين مقبرة وحبسٍ...

عجبت حياة للزيارة.. ورحبت بالضيفين ودعتهما للجلوس تحت شجرة التين الوارفة الظلال...

أضواء الغروب أحالت السماء إلى أرياض قرمزية... غابات وجبال وهضاب من ذهب وجعلت جدران البيت الخارجية تسبح في مياه وردية وظلال شفافة...

شربوا الشاي وتناولوا معه الكعك وطلبوا ماء بارداً، وأرادت العمة (سميرة) رؤية صورة ميساء، فأحضرتها لها حياة، وبسملت وقالت:

-ما شاء الله... ليحفظك الله يا ميساء، يا بنت حياة، ولتحرسك الأسماء الحسنى من كل عين حاسدة...

بعدما انتهت العمة سميرة من أداء مشهدها هذا التفتت إلى حياة وهمست:

-حياة تبدين في عمر ابنتك.. أنت شابة وجميلة...

صوت العمه (سميرة) كان جميلاً وعميق النبرة ورقراقاً تذكر حياة أنها غنت لها في حفل زواجها أغنية لأسمهان... كانوا يطلبون منها أن تردد أغنيات لأسمهان فالصوتان يتشاركان في الصداح والنقاء...

غنت في العرس أغنية (يا طيور)... و (ليالي الأنس) فأثارت من حولها اضطراباً في نفوس النساء وارتباكاً في شهوات الرجال وأيقظت حواس الشابات.

طرب الجميع لصوت (سميرة) وأدائها المذهل في تقليد أسمهان.. ولم يتمالك أحد الكهول العزاب نفسه فتقدم لخطبتها أمام الجميع... تذكر حياة أنها قالت له:

-إن كنت عشقت صوتي فسأسجل لك شريطاً لتسمعني... أنت أخ مديحة أليس كذلك؟ سأعطي الشريط لمديحة...

قال:

-بل أريدك أنت...

-ولكنك لا تعرفني وأنا لا أريدك...

-صوتك هو الذي كشف لي عن كل شيء... صوتك مهد الطريق إلى أسرارك...

-لم تسألني إن كنت أحب رجلاً؟

-لم يخطر هذا على بالي... أنت فتاة فاضلة من عائلة محترمة... لم أفكر بهذا

قالت بسخريتها:

-وهل يتقاطع الحب مع الفضيلة؟... عزيزي أنا فتاة فاضلة تحب رجلاً فاضلاً اسمه فاضل.. ولست أسمهان أو فائزة أحمد... فهل تتزوج صوتاً فاضلاً؟

-صوتك كشف لي عما هو أثمن منه...

-وتسرعك كشف لي عما هو أسوأ ما في الرجال...
تذكر حياة أنها أثارت حماس الرجال والنساء في الحفل وتسابق النساء لتهدئتها وإرضائها لتواصل تقديم أغنيات أسمهان.. حتى يحين موعد الزفاف...
تقول سميرة:
-حياة، تعرفين الدنيا هذه الأيام وأنت شابة جميلة وأرملة وحيدة، نحن...
-لست أرملة عمة سميرة.. لأن غالب لم يمت.. وأنا في انتظار عودته
-أعتذر..ـ حياة.. ولكن.. تعلمين..
-أعلم شيئاً واحداً هو أنك أخطأت الطريق...ـ
-أنت لا تدرين ماذا أريد...
-واضح ما تريدين عمة سميرة...
-أخي سعدي مقتدر ولديه بيت ومورد ثابت... تعرفين المرحوم والدي أورثنا عمارة وبساتين في (الفحامة)...
-وما دخل هذا في ما جئت من أجله؟
-أنت وحيدة، وتحملت الكثير مع ابنتك خمس عشرة سنة... هذا لا يحتمل..ـ
هذا ظلم...
-ما شكوت حالي لأحد...ـ
-ولكن لا يجوز أن تعيشي وحدك...ـ الناس تطمع... الناس لا تسكت...
-وهل ستسكتين عمة سميرة؟..
-ما هذا الذي تقولينه؟
-لا أريد أن أسمع كلمة أخرى...
تحمل صينية الشاي وتمضي إلى داخل البيت، وقبل أن تدخل تلتفت إلى سعدي وسميرة:
-معذرة.. لا وقت لدي... أريد الذهاب إلى عملي...
-وعندك عمل بالليل؟...ـ تعملين في الليل؟
-أعمل في أي وقت أريد... ألديك مانع؟
-حرام... والله حرام...ـ نريد أن نسترك أنت وابنتك..
-أنا أبيع الستر للجميع... أتريدين شراء شيء منه لك ولأخيك سعدي؟
-حياة عيب هذا الكلام أنا أكبر منك...
-ولكنك أصغر عقلاً من صبية اذهبي وابحثي لسعدي عن عروس تناسبه في غير هذا البيت...
-تتبطرين؟.. ارملة وتتبطر... يا الله سعدي.
لم ينطق سعدي بكلمة، كان منصاعاً لصمته وتدابير أخته

وهو ينقل نظراته الحائرة بين المرأتين.
تقوده سميرة وتمضي به بينما تصفق حياة الباب وراءهما..
لم يحضر الصوت.. لا صوت رويدة ولا صوت غالب...
تريد لصوت رويدة أن يعود لتستوثق منها ما بذرته من ظنون ومخاوف، أحقاً حدث ما حدث؟
منذ الأمس واضطراب هائل في عالمها جعل مسألة ضبط الساعات عملاً هازلاً لا معنى له...
نشاز النظام وسط التداعي الذي صار قاعدة للأشياء... سيادة سلطة الموت على سلطة الحياة...
هبت نسمات هواء.. ربما سمعت همسة ما في المرور الهوائي السريع إزاءها... لم تسمع...
صوت رويدة أشعل حريقاً في الزمان... وحفر أخدوداً من الألم في لحمها...
ما الذي فعله زياد بها وبابنتها؟
هل قصدت رويدة إلى إدامة عذابها بما باحت به أم أن كل ذلك جسدته انهيارات عقلها المرهق.
ربما.. من يدري... لقد تقدم زياد إلى هدفه فوق جثث الجميع...
استعبدته رغبة الفرار إلى عالم بلا كوارث وزمن بلا حروب..
عرفت ذلك أو استقرأته عندما باع البيت بالمزاد.. عرضه على مستثمرين، وتسابق أصحاب الأموال في الحصول عليه، ثم فاز به أحدهم ليقيم بناية تجارية ومطعماً ومكاتب عقارات.. تسلم الثمن وحزم حقائبه ورحل..
بعد كل هذه السنوات الثلاث يساومها المستثمر على شراء نصف حديقتها لإضافتها إلى فضاء المطعم الصيفي الذي سيحتل الرصيف وناصية الشارع الذي يقع عليه بيت حياة وحديقتها..
قال لها الرجل:
-سأعوضك بثمن لا يصدقه أحد... سأعطيك بيتاً صغيراً أنيقاً في شارع الأميرات... أو شقة حديثة في شارع حيفا... مقابل الحديقة..
-انس الأمر... لن أبيع.. انتهى الموضوع...
-أمي.. كيف ستواجهين من يملك القوة والمال؟
بماذا سنقاوم أنا وأنت؟
-بحقنا.. ألسنا أصحاب حق؟
-أي حق؟.. أنت لا بد تحلمين.. عالمنا تغير... أعني عالمك.. أفيقي من مثاليتك.. أمي يا حياة.. سيحول هذا الرجل حياتنا إلى جحيم..
-أكثر من جحيمنا الراهن؟ ما الذي سيتغير؟
-سيزعجنا وجود المطعم، وزحام الزبائن وسترين...

-لا يبرر كل هذا تخلينا عن صديقتنا، انظري لقد كبرت النخلة وحملت للمرة الأولى... انظري أحواض الزنبق، وخطوط الجوري وحوض القرنفل.. ألا ترين معي أن حديقتنا أثمن من كل مال؟

-لم أتحدث عن المال.. إنما عن القوة التي يملكها مثل هذا الرجل...

-سترين أنني لن أتراجع... سترين..

لم يأت الصوت الهوائي، لم يظهر صوت رويدة ولا سمعت صوتاً لغالب، وقد انقضى معظم الليل.. لم يكن هناك غير الصمت الليلي السميك... المشبع بالظلمات...

****

الفصل السابع

من أوراق ميساء..
(1)

لعبة الحرية المؤقتة تعرضها الحمائم المدجنة في هواء النهار، أراقبها من النافذة وأتابع ألعابها المرحة.. ذات نهار ستراقبني الحمائم.

سرب الحمام يرسم قوساً مائلاً ثم يستقيم ويتجه مثل سهم على الأعالي فلا أعود أراه في وهج الشمس، بعد برهة يظهر السرب في قوس أبيض يلتمع في الشمس وينحدر نحو الأفق متجاوزاً رؤوس النخل لينطلق ثانية.

الحمائم ترتضي حريتها المؤقتة وتمارسها لأنها أصبحت عادة يومية وليس هما مقلقاً تضطرب به قلوبها. وعندما تتحول الأشياء الثمينة إلى عادات تفقد أهميتها وتتساوى مع الأشياء الأخرى..

الحمائم تتخلى عن هذه الحرية بإشارة من راعيها المروض، تحلق في زرقة النهار وعيونها متجهة صوب الراية التي يلوح بها الرجل فوق سطح بيته، يرسم الدعوة في الهواء: يرسم كميناً.

يفهم الحمام إشارات الراية التي تدعوه لدخول القفص وكالعادة يستجيب الحمام للتخلي عن حريته ويعرف أن عليه العودة إلى القفص بديل أفق وسماء وريح وغيوم.

كان زياد مولعاً بالطيور فاشترى لنا أزواجاً من الحمام الزاجل والأورفلي والهنداوي وأنواع أخرى لا أذكرها، فيم يعنيني الاسم؟ ما يعنيني هو الكائن الحي، وضع الحمام في قفص فوق سطح البيت وبنى لها برجاً من الطين تحسباً لتغيرات الطقس...

حاول تلقينها الأوامر عن طريق الراية التي يلوح بها لكنه أخفق في ذلك ثم قررنا أن نطلقها في لعبة الحرية المؤقتة ونرى، رفرفت الحمائم الفاتنة واصطفقت الأجنحة واتجه السرب نحو الشمس..

مضت نحو أقاصي الأفق وتلاشت في زرقة السماوات، ثم ظهرت في الشرق وأختفت في ندف الغيوم المتناثرة.

انتظرنا عودتها.. لوحنا بالراية طويلاً.. أطلق زياد صفيراً خاصاً يعرفه مربو الحمام.. لم تعد أية حمامة، غابت الحمائم وبدا أنها لن تعود أبداً..ـ

انتظرنا طيلة الظهيرة، أحضرت لنا أمي الطعام إلى سطح البيت لكننا لم نذقه فقد أفسد الإحباط شهيتنا، خسرنا الحمائم فربحت حريتها.

قال زياد: إنها مهنة فاشلة.. أخطأنا عندما أطلقناها اليوم، كان علينا أن نروضها جيداً لتعود إلينا.

ضحكت أمي وهي تقدم لنا الشاي:

-كان عليكما فعلاً أن تدرباها جيداً لتمضي فلا تعود.. إنها لم تخلق لهذا.

عندما أقام عندنا أفردت لـه أمي غرفة في الطابق الثاني جعلتها أفضل غرف البيت أناقة وتنظيماً، وضعت لـه أصص نباتات ظل وعلقت على النوافذ ستائر جميلة وطلبت إليه أن يقوم بارواء النباتات كلما جف تراب الأصص.ـ

ولكي تنسيه قصة الحمائم بدأت أمي تعلمه كيف يحب النباتات ويتأمل سحر الزهور ويعرف أسماءها ويميز روائحها وأهدته (موسوعة الفصول الأربعة للزهور البرية) وبالتدريج أصبح شريكها في عالم النبات العجيب الرقيق المفعم بالمفاجآت.

كانا يذهبان معاً لشراء الشتلات وأبصال النرجس ودرنات الداليا وكورمات الزعفران من مشاتل الزهور في شارع (قطر الندى) الممتد من جسر الجادرية إلى حي السيدية.

واقترحت أمي أن نزرع ثلاثتنا شجيرات جوري تسمى لمن زرعها، واستمتع زياد بهذه المحاولات التي زجته بها أمي، وأذكر أنه هو من أطلق على حديقتنا اسم حديقة حياة..

عندما سافر زياد تعهدت شجيرته برعاية مضاعفة فكنت أرويها عندما تبزغ نجمة المساء معتقدة أن اقتران الرى بظهور كوكب عشتار سيمنح النباتات خصباً فتنتج وفرة من زهور..

كم كنت أعلق آمالاً على إشارات الأرض أو علامات الكواكب أو نذر السماء...

تعلمت لغة العشب وتحركات النجوم في أفلاكها حتى استغرقني ذلك طويلاً مع انهماكي في الموسيقى مما غيّب عن وعيي أية إمكانية لتحليل الأحداث تحليلاً منطقياً..

لكنني من جهة أخرى استطعت فهم أسرار الطبيعة وألغازها وملاحقة إشارات الأفلاك وتحولات الفصول، ومنحتني هذه الاهتمامات مفاتيح سحرية لأحاجى الوجود، بينما كان زياد يقف عاجزاً أمام الكثير من الظواهر ويسخر من انصرافي إلى هذه العوالم الغامضة ويقول:

-أنا لا أؤمن بغير حسابات الواقع واحد زائد واحد يساوي اثنان.. لا أعول على شطحات الخيال أو التصورات الذهنية..

لم يقتنع طوال سنوات عيشه معنا بغير الحسابات المنطقية الجامدة والنتائج المحددة لواحد زائد واحد.. وكان يفهم الجسد الإنساني باعتباره آلة حية ينبغي إطعامها وخدمتها وإدامتها لتواصل أداءها على أحسن وجه...

بينما كنت أرى الجسد مأوى الروح التي تتصل بالأكوان والطبيعة وهي التي تتلقى الإشارات من السنبلة وذرة التراب.. من النهر والنملة والعشبة والموسيقى..

حينما تشط بي الأحلام وتأخذني الروح في معراج الموسيقى أعزف تقاسيم روحانية يشف جسدي وأصير.. ماذا؟ لا أدري أصير ماءً، أصير أجنحة ضوء أصير نفسي التي تحب ويثقلها الحزن وأتساءل: هل يعودان؟

-لا أدري... كلاهما ذهبا.. أحدهما غاب في الغرب... والآخر غرب في الغرب وأنا في سرة العالم أتلقى إشارات الزمان... أسمع الموسيقى ثم أستفيق من انسحاري أنا أحب.... وأعرف كيف يحب الإنسان، لا أعرف كيف أنسى، ولا أعرف كيف يكون الإنسان عندما يذوي الحب...

أتساءل كيف يصير زياد فناناً وهو لا يقيم صلات مع أشياء الكون؟... لا أسأله اصمت...

رسالته الأخيرة وصلتني بالأمس، كشفت لي عن معاناته من التشتت، انعدام الثقة ربما اللا ثبات.. أحدس ذلك من ارتباك خطه، من كتابته لمقاطع باللغة الإنكليزية لماذا يستعير لغة ليخاطب حبيبته؟ ذلك يعمق المسافة، يجرح الشوق... ذلك يحاذي الهجران...

مزهواً بما حققه يكتب لي:

(.. حبيبتي ميساء... بدأت أجني ثمار جهودي.. سيعرض عملي المسرحي الجديد قريباً..

تذكرين حديثنا عن ملحمة كلكامش ومغامرته في بحر مياه الموت؟

ها أنا قد عبرت مياه بحر الموت وبلغت أول عتبات الشهرة.. وسأحظى بالمجد... وسيعرفني العالم... ستكونين معي، سنكون معاً... وسنحتفل بالنجاح وسيضعون إكليل الغار على جبيني، إني أرى تلك اللحظة وأحس عظمتها.. سترين ذلك بنفسك لأنك ستكونين معي...).

(زياد)

كنا نتحدث عن الموت الذي صار يعيش في بيوتنا وحدائقنا ويتغذى على أرواحنا ويقاسمنا الأحلام ويجري وراء خطواتنا ولا يبتعد عنا إلا عندما يشم رائحة الحب تنبعث من أجسادنا.. الحب مضاد فعال للموت،..

يسألني:

-ألم يكن بطل الملحمة يعرف ذلك؟
-كلكامش؟... ربما لم يكن قادراً على اجتراح فعل الحب، لذلك أقلقه الموت، وأرعبه موت صديقه وجعله يواجه فكرة الموت الذي يحاصره...
أفهم من زياد أنه يعشق فكرة الخلود وما اتجاهه إلى فن التمثيل إلا سعياً وراء خلود شخصي عبر الفن...
أقول له: الخلود كلمة ذات وجود متعددة، مثل بلورة ذات أسطح صقيله...
-أنا أحببت كلكامش، وأعدت قراءة الملحمة مرات ومرات..
-من أجل استيعاب فكرة الخلود؟
-ربما... لكني أحببت مجازفاته أكثر... أحببت شجاعته...
ربما فيما مضى كانت تستهويني فكرة الخلود بتأثير من زياد... أحلم معه، نحلم معاً.. البقاء في الأبدية بعد فناء الجسد... أحلم به.
الطيور بفعل انتشائها بأشذاء زهور البرتقال تتقافز مجنونة وتتصادم ثم تجثم على فرع شجرة تنشد أغاريد عجيبة، نداءات حب تتعالى من الحديقة.. صراع من أجل أنثى ومجثم فوق شجرة...
شذا زهور البرتقال يهيج أشجان قلبي... اسحق زهرتين بين أصابعي فتفوح الأشذاء أقوى، تخترق حواسي، ارتعش... ابتعد عن زياد... اجلس قبالته... يلحق بي ويمسك يدي المعطرة، يتشمم العبير ويقبل راحة اليد...
-اذهب... ابتعد عني... اجلس أمامي.. لا تقترب..
-أردت أن أخبرك أنني أحب الأفاعي، لكني لا أعرف عن علاقتها بتاريخ البشر.. استغرق في الصمت... أسمع ترنيمات... تهتز سعفات النخل.. أسمع نداء أمي... أسمع نبرة أبي.. اسمع.. اسمع..
-ميساء... ألا تحدثيني عن تاريخ الأفاعي؟
انظر إليه بعينين غائبتين.. أريد أن أقول لـه أحبك أكثر الموسيقى تهب من أصابعي أريد أن أعزف... سأعزف...
-حدثيني عن الأفعى..
-اللوحة.. أنت تعرف هذه اللوحة.. الرجل والمرأة والنخلة والأفعى آدم وحواء السومريان.. ليس من خطيئة، هكذا الأمر.. يفوز العاشقان بالمعرفة ويخسران الفردوس..
-وما دور الأفعى؟
-حين تتصل الاثنان من المسؤولية.. ألقيا التهمة على الأفعى.. بدأ حياتهما بتزوير الحقيقة... من أخطأ ومن أغوى.. الثأر بدأ من هناك..
-وكلكامش ألم تسرق منه الأفعى عشبة الخلود؟
-أخطأ مرتين، مرة عندما تلقى قصة العشبة من جد البشر

أوتانبشتم وفهمها حرفياً
-قال لـه أن النبتة موجودة في أعمق أعماق مياه البحر المالحة ولها جذر زنبق وأشواك ورد الجوري.. جميلة وجارحة.. إذا حصلت عليها ستنال الأبدية...ـ كان الجد يدعوه للتأمل في أعماق نفسه واقتلاع ما بداخلها من أدغال غرور وشر وشهوات سلطة..
-أهذا فهمك الشخصي للقصة؟
-نعم... أراد لـه الجد أن يعود بشراً سوياً قادراً على الحب، هو الذي رفض حب عشتار لـه والدليل عند صاحبة الحانة البحرية سيدوري التي تلقن الناس أسرار الحياة البشرية...
والخطأ الآخر: والأخطاء الأخرى؟
-لن أكشف عنها الآن...ـ سوف أحاول أن أكتب لك مشهداً مسرحياً يتضمن رؤيتي لأحداث لم تذكرها الملحمة..
-متى؟
-سيحدث ذلك في أوانه...
-قد نفقد الفردوس مثلهما...
-أنت معي... فأي فردوس بعد هذا؟
يقترب مني، يمسك بكتفي ويرفع رأسي نحوه أهب واقفة لأبعده عني فيلتقي وجهانا
-أريد حبك أكثر من أي شيء آخر.. ربما كان هو الخلود الذي أنشده...ـ
-سوف تعاقب بالنزول إلى الأرض... وسوف تفقد ما سعيت لأجله..
-ليكن إذا أخذني حبك إليك.. ما أريده هو أن تكوني لي... عديني أنك ستكونين لي..
لبث يتشبث بي مثل غريق يمسك يدي... طفل تائه عثر على أمه وسط زحام العالم... ينحني علي ويقبل مفرق شعري ويضمني ويهمس:
-ميساء ساعديني، أنا عاجز عن الاستمرار لا أستطيع نسيان كارثة أهلي...ـ تعرفين ما أعاني قد يكون رحيلي علاجاً لعذابات روحي...
-لا أعتقد أن الرحيل سيجدي.. آلامنا ترقد في أعماقنا ولا علاقة للأمكنة بالموضوع..
أقرأ صفحة أخرى من رسالته..
[.. حبيبتي ميساء.. متى تأتين؟ متى؟
نجحت في كورس اللغة بامتياز.. ستفتح أمامي أبواب التقدم والنجاح..
سأقدم عملاً مسرحياً بالانكليزية، لو كنت معي لساعدتني في اختيار النص.. سأختار نصاً للكاتب (هارولد بنتر) وأقدم

العمل في جامعة (اكستر).
أشعر بالمرارة لأنك لست معي.. أحبك.. أشتاق لشذا البرتقال والشاي الشهي من يد أمنا حياة..ـ
متى.. متى تأتين؟

زياد]

كيف يمكنني أن أحب رجلاً سواه؟
كيف لي أن أدع يداً غريبة تلمسني؟
وكيف سأمضي سنواتي القادمة في وحشة القلب؟
أكتب له:
زياد...
أراك كل ليلة في الموعد ذاته، أشم في الهواء أريج الحب الذي يشع في أجواء الربيع ويفوح من الأرض المحروثة ومياه النهر...
أشتاق إليك، أشتاق لمشاهدك المسرحية البارعة، كنت تقدمها لي وكأني مرآة نفسك لتلمس ما ينعكس علي من أدائك، هل تذكر؟ كنت أهمس لك:
-أحب نبرة صوتك العميقة.. أحب نظرتك وأنت تحدثني عن غدٍ محتمل لنا فأرى الغد في عينيك...
كم أحب إنصاتك لعزفي، كم أحب حياتنا معاً؟
شجيرة الجوري أزهرت وكأنها تعلن ضحكتك..
أحب صوتك بلغتنا لأن الكلمات تصبح حية ولها حجم ولون حين ينطقها المحبون..ـ
زياد..
تعرف أن الإنسان لا يسكن أرضاً ولا بيتاً فخماً مشيداً كالقلاع ولا داراً ريفية تطل على البحيرات والغابات، روح الإنسان لا تسكن الأمكنة لأن بيته الحقيقي الأول والأخير هو لغته، فلماذا تكتب لي بلغة أخرى؟؟
أكتب بلغتنا التي تنبض في الدم وتعتاش على الذكرى وأصداء حكايا الأمهات التي سمعناها عند عتبات النوم... لا تتوهم أنك باللغة الأخرى تستطيع أن تحبني.. كلمات الحب لا تستعار من القواميس لأنها لا بد أن تتفجر من أعماقنا فتتدفق بأشواقنا وأحلامنا..

بحثك المضنى عن الشهرة وتوقك للخلود دفعاني إلى كتابة مشهد مسرحي عن ذلك المغامر العجيب الذي تسعى للتشبه به وتتماهى مع مجازفاته.. أحبك

ميساء]

يداهمني طرق عنيف على بوابة الحديقة.. أنظر من النافذة فأرى رجلاً ضخماً بديناً يضع نظارات قاتمة وعلى مبعدة منه

يقف رجلان آخران..ـ
ما أن يراني وراء النافذة حتى يصرخ بصوت سميك:
-أنت يا ست حياة أنت.. افتحي لنتحدث
-من أنت؟؟
-أين أمك يا بنت..؟
-من أنت وماذا تريد؟؟؟
-أين هي ست النسوان... أمك؟
-ماذا تريد منها؟
-ألا تعرفين؟.. أريد أن أنهي الموضوع... ثلاث سنوات وأنا أنتظر ولم تقتنع..ـ
-أي موضوع...؟
-شراء هذه الخربة.. حديقة أمك التي لا تريد التنازل عنها...
-ولن تتنازل..
-اسمعي يا بنت.. أنت.. أخبري أمك أن العناد لن يوصلها إلى نتيجة.. اسمعي.. قولي لها أن يدي تصلَ إلى أي مكان..ـ وسترون.. فهمتِ؟
-لن تستطيع فعل شيء... ما أدراك أن يدنا أطول من يدكَ؟
-تهددينني؟
-أنا أرد على تهديدك..ـ
-نسوان آخر زمان.. ماذا تفعلين يا بنت حياة؟... لو كان في البيت رجل لتفاهمت معه، لكن.. أتفاهم مع نسوان؟..ـ سترون ماذا يفعل كايد الحردان بأمثالكم...
أغلق النافذة وأبكي:
لو كان في البيت سواي، زياد أو أبي..ـ إذن لما حدث لنا كل هذا...

(2)
من أوراق ميساء:

حبيبي زياد..
ها قد تحولت الآثارية العاطلة عن العمل إلى مشروع كاتبة.. لكنها تبقى في حدود اختصاصها.. رسالتي إليك هذا النص:
(كلكامش وشجرة الصفصاف)
على ضفاف الفرات في البراري.. نرى زورقاً يتهادى في النهر... تخفق طيور مائية قرب سطح الماء... نشاهد أجمات

القصب والبردي إلى اليسار، عن اليمين غيضة صفصاف تتناثر على المدى المكشوف أمامنا هياكل عظمية.. قرون ثيران وغزلان.. جماجم بشرية.. مع مسلات مرموقة بعلامات مسمارية واضحة.. ضباب أو دخان يلف المشهد..ـ

أصوات حفيف الشجر، اضطراب الموج.. اصطفاف أجنحة مع أصوات مبهمة يرافقها أنين..ـ يصل كلكامش منهكاً بادي التعب لكنه يقاوم تعبه، ثم يجلس ليرتاح عند أجمة الصفصاف... يسمع همهمة أصوات وضجة خفيفة...

صوت أو صدى: عد من حيث أتيت

قدر الإنسان الموت

هذا مضيعة للوقت

عد... عد...

لا شيء سوى الموت..ـ

عد من حيث أتيت..

(تتلاشى الأصوات في تردد الصدى ثم تختفي)

يسمع كلكامش حركة بين الشجر وأنيناً غامضاً... ينظر إلى العظام والقرون المتناثرة

كلكامش: أينما وليت وجهي أجد نذر المصير... كل شيء إلى فناء.. وأنا؟.. أنا كلكامش... أأغدو عظاماً وتراباً تذروه الرياح؟

لا.. يا لـه من مصير يليق بالزواحف... هذا خطأ جسيم في نظام الكون..ـ لماذا؟... أين أجد الجواب؟..ـ أين؟.. ما أضيق الدنيا، ما أشد مخاوفي..

صوت هامس

مرتعش: أأنت خائف؟.. هل أدلك على ما يهزم فيك الخوف؟

كلكامش

مباغتاً: من؟ من هذا الذي أسمع؟ ما الذي يهزم خوفي؟

الصوت: اعمل.. غير نفسك فيتغير العالم.. اعمل تبعد عن قلبك هذا الخوف..

كلكامش: من يتحدث؟.. من تكونين؟.. ما أنت؟..

الصوت: اسمع أولاً... اسمعني..ـ

كلكامش: أأنت امرأة.. أم أنت من آلهة الكون؟..ـ أم أنك ريح الجنوب؟ أم أنك سيدة الماء؟

الصوت: ولم التعجل؟.. وعلام تعذبك الأسئلة؟ وما هذا التعب الذي يعلو وجهك وينهك جسدك؟

كلكامش: متعجل لأني أروم السفر في مياه بحر الموت... والأسئلة تعذبني.. لأنني أنا سؤال حائر يطوف العالم بحثاً عن جواب... وأنا حزين لأنني فقدت خلي وصديقي أنكيدو الذي

أصابه الموت.. فخفت ومضيت هائماً على وجهي الأسئلة تأكل قلبي، أما من جواب؟

الصوت: لو أمعنت النظر إلى نفسك لعثرت على الجواب... إن الأهم لدي أن يتساءل الإنسان.. السؤال أجدى من الجواب...

كلكامش: لا.. أيها الصوت، فأنا أبحث عن الجواب، وسأظل أبحث عنه في تجوالي ولا بد أن أعثر عليه..

الصوت: أما أنا أيها الحائر فإني أنظر إلى نفسي فأعرف الإجابة...

كلكامش: ما أنت؟

الصوت: أنا شجرة الصفصاف... انظر إلى جسدي الخشبي فأعرف الإجابة...

كلكامش: جسدك؟ أنت أيتها الصفصافة؟

الصوت: نعم.. هذا الجذع الموصول إلى أعماق الأرض، الممتد إلى مديات الشمس...

كلكامش: ما به؟

الصوت: تأملني، وانظر كم مرة قطعوا جذوعي.. قاومت الموت، قاومت الفأس، لكني في يوم أت سأموت.. انظر كم جذمة مقطوعة تحيط بي؟

كلكامش: ..جذمات كثيرة..

الصوت: مرة أخذوا بعض خشبي وصنعوا لك مهداً حين ولدت...

كلكامش: لي أنا؟..

الصوت: نعم، ثم لما صرت صبياً صنعوا لك دمية من خشبي، ثم لما نضجت وصرت رجلاً صنعوا لك سريراً من خشبي لليالي حبك...

كلكامش: كل ذلك ولم تجفي؟.. كيف تحملت كل هذا؟ كيف؟..

الصوت: ثم صنعوا عرشاً لملوكيتك.. وما تبقى مني، ما تراه الآن سيصنعون منه نعشاً لما تبقى منك..

كلكامش: لا لن يحدث ذلك أبداً.. لا... لن يصنعوا النعش..

الصوت: بل سيفعلون، لا بد من نهاية لكلينا.. لا بد من نهاية للجميع..

كلكامش: لا.. لا أريد أن أسمع.. لا..

الصوت: أنت بحاجة لأن تسمع.. لا بد أن تعترف بأنك تتجاهل الحقيقة..

كلكامش: أنا أعرف وأتجاهل وإني لحزين لهذا..

الصوت: ما علمت أن المعرفة تثمر أحزاناً، المتع وحدها هي التي تنضج أحزان القلب.. لا بد أنك نلت الكثير من المتع لتحزن

كلكامش: هذا الحزن..
كلكامش: اطمئني يا صديقتي شجرة الصفصاف لن يقطعك أحد.ـ ولن يصنعوا النعش من جذعك الباقي..
الصوت: وهم.. وهم.. أنا لا أخشى قدري..
كلكامش: لا بد لي أن أعرف طريق البقاء، لا أريد أن أفنى لا أريد أن أتحول إلى تراب..ـ
الصوت: ستعرف المزيد كل يوم وكلما ازددت معرفة تكاثرت الأسئلة.
(تجلجل ضحكة امرأة مرحة سرعان ما تدخل مجال الضوء)
سيدوري: نعم المعرفة لا نهاية لها وكذلك الفرح يا كلكامش..
الصوت: تعنين المتع أيتها المرأة.
سيدوري: بل الفرح الصافي..
كلكامش: ما الذي أتى بك إلى هنا يا سيدوري يا صاحبة الحانة؟
سيدوري: جئت لأبوح لك بالسر، هناك في مياه بحر الموت لا شيء سوى الأفعى والتنين وحية البحر ذات القرون تلك التي قوتها لا تقاوم...
كلكامش: إن لقيت هذه الوحوش سأخمد قوتها ببسالة قلبي.ـ
سيدوري: هناك لن تجد الجواب بل اضطراب القلب والعاصفة التي لا تقهر..
كلكامش: هذا أعرفه يا سيدوري.. أعرفه..
سيدوري: علام تمضي إذن في رحلة الموت؟
كلكامش: لا بد من إجابة وعندئذ سيفعم قلبي الرضا..
سيدوري: تخطئ يا ملك أوروك الجواب هنا على أرض البشر، هل عرفت الفرح؟
كلكامش: جربت كل شيء.. كل شيء.
سيدوري: إذن دع الرحيل وليبتهج قلبك ولتفرح بما وهبتك الحياة. (تظهر نيسابا)
نيسابا: لا.. لا تصدق يا كلكامش ما تقوله هذه المرأة، لا تصدق ما رددته الحكايات والقصص القديمة، لا تأخذ ما يقوله الرواة مأخذ الجد إنهم يبالغون ويكذبون ويزيفون الحقائق، أنا نيسابا سيدة المعرفة حذفوا وجودي من نص الملحمة فلبثت حبيسة العدم لكنني سكنت ذاكرة الكاتبة السومرية وأوحيت لها أن تظهرني خلال عصر من العصور.
لو كنت ظهرت آنئذ لتغيرت أحداث الملحمة ولتبدلت أحوال البلد وأخبار الملوك وتحركاتهم..
سيدوري: لا تستمع لسواي.. ما الذي يدفعك لتغامر

بحياتك؟ لا تنصت إلى من تثير الاضطراب في النفوس..
كلكامش: مات صديقي ولا أطيق البقاء في أي مكان.ـ حل الاضطراب في قلبي وزلزلني الخوف.. أريد النجاة يا سيدوري.. أريد الحياة وحدها.
سيدوري: الحياة التي تنشد لن تجدها فحين خلقت الآلهة البشر قدرت عليهم الموت واستأثرت بالخلود لنفسها.
كلكامش: لماذا يفنى ملك مثلي؟ لماذا؟
سيدوري: لا تقلق أيها الملك الجميل.ـ
لك أن تفرح، كن فرحاً، لم لا تفرح؟
هي ذي حال الدنيا ألم وهناء، فرح وبكاء ونهايات..
كلكامش: لا شيء سوى الموت.ـ
سيدوري: أما أنا فمن باب الحانة أرقب هذي الدنيا
وأرى كل مصير الإنسان
صرخات أسمع وأغاني
كلكامش: والموت الموت ألن نهزمه؟
سيدوري: ستحيا قدرك وستموت مثل الآخرين لذا عليك أن تستمع بما وهب لك..
كلكامش: لن أموت مثله، لا لن أدع جسدي للدود وأغدو تراباً فلا أقوم إلى الأبد.ـ لماذا أقمت الأسوار؟
لماذا شيدت المعابد؟ لماذا صرعت الوحش، الأجل أن أغدو تراباً؟؟
سيدوري: افرح يا كلكامش..
افرح هو ذا قدر الناس، لم لا تفرح؟؟
زهر حولك يتفتح
وشموس تتألق
وغدير يتدفق
فافرح لم لا تفرح؟
وجه حبيبتك يلوح على الأفق
والليل يراود جمر الشفق
وأنا؟ أتراني؟.. أرقب هذي الدنيا من باب الحانة
وحدود البحرِ
أنسى ما مر
وانتظر الآتي
فاملأ يومك بالحب
وتوهج ليلاً كالشمس
وعانق سيدة القلب..
افرح يا كلكامش..

تنشد زمناً آخر للإنسان؟
تطمح في عمر ثان؟
عد من حيث أتيت!
قدر الإنسان الموت
لا شيء سوى الموت
فافرح وتناسى ما مر
وترقب هذا الآتي من عمق البحر..
تقدم لـه الشراب وتعبث بخصلات شعره الطويلة...
سيدوري: لحظة زمن في اليد خير من وهم قاتل... عش يومك فالدنيا زائلة، إلا لإله قادر... خذ اشرب رحيق الآلهة.. ستهز البهجة أعطافك، سترقص أمامك الأشجار...
وسيطربك غناء العرس... وتتفتح أمامك زنابق الماء... وتشرق الدنيا بألوان قوس قزح...
نيسابا: كلا يا كلكامش، هذه المرأة تبيعك فرحاً زائلاً وبعده يأتي الحزن ويملأ قلبك كالدخان... إنها هي الدخان يحجب عنك الحقيقة..
كلكامش: من يقول هذا؟ سيدة المعرفة؟
الصوت: نعم، من علمتك أن تعرف وتكون!
سيدوري: هراء، لا تستمع إليها إنها ستسحبك إلى بئر النسيان.. تعال إلي... سأقص عليك أناشيد الحب، سأغني لك... سأسقيك رحيق الآلهة... وستنام على ذراعي...
كلكامش: أنا ما عدت أعرف شيئاً.. ولكن ماذا يعرف الجميع؟ كلهم يجهرون بحقيقة الموت..
نيسابا: سأعلمك المزيد، المعرفة لا نهاية لها، تبدأ كل يوم ولا تنتهي مثل الحياة...
كلكامش: ولكن لماذا؟.. لماذا قدرت الآلهة علينا الموت؟
نيسابا: ألا تعرف؟ لأنها أوجدت الزمن..
كلكامش: أي زمن؟
نيسابا: الأيام، الليل والنهار، والشهور والسنوات..
كلكامش: أكانت الحياة ستدوم لو لم يوجد الزمن؟ هل يجب أن أفتك بالزمن؟...
نيسابا: لا حياة بلا زمن.. نحن نولد ونكبر ونتعلم ونحب ونتكاثر ونشيخ فيه... هذه أجسادنا، ووجوهنا انظر إلى نفسك.. انظر إلي.. كل ما فينا من صنع الزمن..
كلكامش: بل من صنع الآلهة..
نيسابا: وهي التي سلطت علينا وحش الزمن..
سيدوري: دعيه لا تحرضيه ضد الحياة... الحياة ممتعة وكل شيء في متناول يديه، يكفيه ما عرف، هنا كل المتع..

كلكامش: لولا النهاية...

نيسابا: ذلك لأننا من البشر..

كلكامش: ما جدوى ما عرفت؟.. وإلى أين أفضت بي المعرفة؟ حل الموت بصديقي ورأيت الدود يأكله أمامي.. فهجرت الدنيا وهمت على وجهي بحثاً عن جواب..

نيسابا: بالعمل سيبقى اسمك متلألأً على حجارة الأسوار في أوروك المقدسة، وبالمعرفة ستنكشف لك أسرار الوجود وسيدوم ذكرك، فليهدأ قلبك..

كلكامش: هل ترافقيني في رحلتي إلى جد البشر؟

نيسابا: ربما سأذهب معك لأحول بينك وبين أشياء كثيرة، ولنغير معاً أحداث الملحمة وقد نغير مصائرنا فتغدو سيد المعرفة ويتوجونني ملكة لأوروك بدلاً عنك..

كلكامش: أتمزحين؟.. هيا... رافقيني وليحدث ما يحدث.. أيها الملاح (أورشنابي) هيء المركب والمرادي سنرحل إلى هناك..

صوت الملاح

(أورشنابي): لا أريد الرحيل مرة أخرى... سئمت المغامرة في مياه بحر الموت... أريد الحياة هنا..

كلكامش: سترافقنا وستجد الحياة التي تريد..

سيدوري: وهم.. وهم... الحياة.

بين أيدي الجميع... لا تطاردوا سراباً ستعودون في أيديكم رماد الخسران وفي القلب غصة الحزن.. انظروا إلي...

أنا أنتظر هنا ولا أبحث...

عن زمن ثان للإنسان فلدي العمر، لدي الفرح... النشوات... وماء البحر كل صباح أنسى ما مر..

وابدأ عند شروق الشمس.. اذهبوا ولكنكم ستعودون أخيراً ليدي...

إني حارسة حدود الدنيا..

والكل يمر ببابي... ستعودين إلي...

(3)
من أوراق ميساء...

أمي محطة عزاء الحزانى، وكاتمة أسرار الناس، وسوزان... وسوزان الجميلة كما أسميها، تأتينا منذ الصباح.. أسمع بوق سيارتها.. وطرقات يدها على باب الحديقة.. اسمع خطواتها على الممر.. أسمع أمي ترحب بها وتتعانقان..

تقول أمي:

-ما بك سوزان؟ ما الذي أتى بك الآن؟
-حياة حدثت المعجزة..
-أية معجزة؟
-وهل هناك سوى معجزة واحدة أنتظرها؟
-هل حدث الأمر؟ هل تحولت إلى رجل؟
-حياة ليس هذا وقت المزاح..
-لا أمزح، لم تخطر على بالي إلا هذه المعجزة التي ستحل مشكلات النساء كما تظنين..
-عبد المقصود الغنام عبد المقصود مات.. أنا مرتبكة اتصلت بي ابنة أخيه (لمى) فأتيت مباشرة إليك.. تقول أنهم عثروا عليه مقتولاً في طريق التاجي وقد سرقوا سيارته (الشيروكي) وساعة يده ومحفظته...

أذهلني الخبر... بقيت مذهولة لبعض الوقت، لا أعرف لمن أذهب، أم توماس مريضة، ولا أجد لي سواك.. وسوى عسان.. لم أجد من اللائق الذهاب إليه الآن.. قلت آتي إلى حياة.. لتهديني إلى ما أفعله...

-لمى... هل داومت على صلتها بك؟
-نعم... إنها تحبني وتحقد على عمها الذي خاصم والدها حتى مماته..
-سوزان استريحي.. يجب أن تهدأي.. سأهيء لك مغلي الأعشاب، أنت مرتبكة كنت أعتقد أنك ستفرحين...
-لا أعرف أية مشاعر تنتابني، لفرط المفاجأة.. لم أصدق... ولا شماتة بالموتى.. لكل قدره ونهايته، هل نذهب إلى مجلس الفاتحة؟
-أرى ذلك مناسباً، أين تقام الفاتحة؟
-في بيت أخيه والد لمى في الوزيرية..
-هل تريدين الذهاب الآن..
-أريد أن أغير ثيابي.. هل لديك قميص أسود وتنورة مناسبة؟.. لا يليق بي الذهاب هكذا..

كانت سوزان ترتدي سروالاً من الجينز المبقع مع قميص من الجرسيه بلون الخشب وحزام مزين بأحجار زرقاء وشعرها الأشقر متناثر كأنه هالة ضوء تحيط بوجهها الشاحب..

تدخل غرفة أمي وتستبدل ثيابها.. ثم تمسح ما تبقى من آثار زينة وعلى وجهها ريثما تعد أمي مغلي الأعشاب..

قوة أمي تخدم كل الحالات.. أعمال السعادة وأعمال الحزن وأعمال النسيان وأعمال التحرر من أغلال الماضي..

أفكر بسوزان الجميلة التي تبدو لي أكثر هشاشة من قبضة قش، أكثر نزقاً من عصفور.. أفكر بها، بضعفها الذي يعلنه

جمالها البارد وكلماتها المتكسرة بصوتها المغوي..
-أنت قوية حياة.. تستطيعين تحمل كل ما يطرأ من أحداث.. أتدرين لقد كنت مجروحة الفؤاد دوماً سأحاول الآن أن أشفى..
لقد تحملت الكثير لأنجو بنفسي.. لو أنني تسرعت لكان نصف بيتي الآن إرثاً لابنتيه الصغيرتين.. أظن أنني أفعل أشياء صحيحة..
-نعم.. تستطيعين ذلك، لأنك تعرفين أحياناً كيف تجري أمور الدنيا.. أم أنك لا تعرفين؟
-كيف لا أعرف وقد علمتني قضيتي مع عبد المقصود كيف أتصرف بدهاء الأثرياء ولكن بغباء من لا خبرة لهم أحياناً.
-لست غبية يا سوزان إنما أنت ذاهلة عما يدور حولك في الدنيا..
-أتساءل هل لي الحق أن أحب غسان الذي عبثت به؟
-لم لا؟.. غيري قواعد اللعبة، كافئي نفسك برجل مثل غسان.. عيشي عالم الشاعر تعلمي كيف تحيين..
-هل سيغفر لي؟.. أم تراه سيثأر لنفسه؟
-غسان كما أعرفه لن يلعب لعبتك ويعرف ما يريد ولا يلجأ إلى الخداع.
-أنا نفسي لا أستطيع مسامحة نفسي فكيف سيسامحني؟
-سوزان، تحدثي بثقة عن نفسك..
-لا أثق بها.. لطالما أوقعتني في المآزق.. أريد أحداً يساعدني لأثق بنفسي، ترى هل أستطيع البدء من جديد؟
-الأفضل لكما تجاوز الماضي..
-ذلك ليس بالأمر الهين.. أخشى أن يكون كعادته صعب المراس..
-مبدئياً يبدو أنه ارتضى الأمر..
-لكنه يرفض فكرة الرحيل..
-أنت تريدين الحصول على كل شيء دون أن تخسري شيئاً، هذا ليس عدلاً يا سوزان..
تلتفت سوزان نحوي وتقول لي:
-ميساء هل أنت راضية عن موقفك؟
-أي موقف؟
-بشأن رفضك فكرة سفر زياد وتمسكك بالبقاء هنا..
-لكل إنسان رؤيته الخاصة للأشياء..
-أأنت مقتنعة؟
-حتى وإن لم أقتنع، لقد ارتضى زياد أن يكون في موضع مستحيل ويصعب عليه التراجع بعد كل شيء..
-أأنت متمسكة به؟

-حتى أفقد قدرتي على الحب..
-أما أنا فلا أحتمل وضعاً كهذا أنت إنسانة مدللة تطلبين فيلبي الجميع أو تأمر الثروة فيصير الكل طوع بنانك..
تقول أمي:
-هل تريدين أن نذهب؟
تنتظر سوزان إليّ نظرة متشككة.. لأنها أرادت أن تقول لي:
-أنت قوية مثل أمك لكنك مخطئة..
-ست سوزان أنت تحبين الانتصارات ولو على حساب وجودك نفسه..
-ربما.. هذا هو اختلافنا، أنت على ما يبدو تحبين الاستسلام..
-بل التماسك في موضعي..
تذهبان معاً، كل منهما تنوء تحت أحمال هموم من نوع مختلف.. لكن ذلك لا يمنع أن تتوحد خطواتهما في ظروف معينة، وأن تعين إحداهما الأخرى، (وهي في الأغلب أمي) على تحمل هموم صاحبتها..
أنا؟.. أختار طريقي.. اخترته.. لم يعد لدي وقت لإعادة النظر في قضيتي.. الحب؟.. لا شأن لـه بكل هذا، أنا أحببت زياداً وسأواصل حبه.. نعم لأنني أجيد العيش في المنطقة الأكثر خيالاً والأشد ضوءاً وفتنة.. منطقة الحلم..
لا أريد أن أصحو من حلم عودة أبي وعودة زياد.. أنا ما زلت فتية وسوزان تكبرني بسنوات عشر وربما أكثر من ذلك..
ويوسعي احتمال الصبر، والشوق، والانتظار.. يوسعي التوغل في ضفاف الموسيقى والتجول في أزمنة الحضارات الغابرة، بإمكاني التحليق في مقطوعة موسيقية أو العوم في نهر الماضي لأصطاد خلاصات التاريخ.. وأعزز الحب..
أرى سوزان عاجزة عن الحب لأنها تريد الامتلاك.. من يهوى الامتلاك يعجز عن الحب.. لا يريد أن يضحي بشيء، بل أن يفوز بالمزيد وكلما حصل على شيء ازداد نهمه للأخذ والتملك..
أعطيت لزياد كل ما بوسعي أن أقدمه له.. وأخذ ما كان يريده وما زاد عن ذلك لكنه إزاء كارثة الذاكرة المجروحة، آثر أن يتحول إلى البحث عن مستقبل لـه بعيداً عن ساحة المأساة التي سقط فيها أهله..
تخلى عني، وعن أمي، أمه التي أعادته إلى الحياة..
كان يتوقع أن يجري كل شيء بصورة فائقة، سيضع قدمه على بوابات الفردوس..سيفوز بالمجد والخلود والنساء.. نعم أعرف ذلك.. سيدهش بجمال أولئك النساء ببشراتهن الناصعة وأجسادهن المعراة وجرأتهن في الكشف اللامشروط عن أنوثتهن..
سوف يحدث أنه لن يتورط بإخلاصه لي.. يدعوني إليه لكنه

لن يصون حباً ولد في ظل الماسآة ونما في حديقة أمي التي زرعناها معاً وروينا نباتاتها في الأماسي الربيعية وليالي الصيف الساخنة حين ينقطع التيار الكهربائي فنخرج لاهثين وقد تفصدت أجسادنا بالعرق لنتنسم هواء الليل ونسمع الزيزان والضفادع ونرى النجوم ترش غبارها الكوني على عالمنا..

أمي تعرف أنه لن يعود، لكنها لا تعلن هذا لي.. تدعني أتوصل إلى النتائج بمفردي..

تقول لي أحياناً: الذين درجوا على تغيير خطاهم، لا يتوقفون عند عتبة من العتبات، إنهم أبناء القلق لهم قلوب مضطربة لا تعينهم على التأمل أو الصبر.

أفهم إنها تدس تلك العبارات في مسافات ثقتي بمن لا تثق به..

أتغاضى عما تقول وأواصل الكتابة إليه ويواصل الكتابة لي، أصبحت الكتابة عادة مستحكمة تسير هبوب الشوق وفورات الغضب وعذابات الليل الموحش..

ماذا تفعل العادة المستحكمة الشبيهة بتدخين النيكوتين الذي يسمم الدم ويتلف الرئتين ويستعبد العقل؟

لا يمكن الخلاص منها، لا يمكن تعديلها، لا يمكن استبدالها، البديل الوحيد لمثل هذه العادات هو اللقاء وطالما أصبح الأمر في غاية الإستحالة فإن كتابة الرسائل تبقى الإمكان الوحيد للبقاء في أوهام الحب..

يكتب لي:

حبيبتي ميساء..

أحبك.. أشتاق لوجهك يا أجمل نساء العالم..

أين أنت؟ أتمنى أن تراودك رغبة السفر إليّ.. أن تسافري إليّ وكأنك تحلمين.. لا تفكري طويلاً بالأمر، جازفي وتعالي..

أحبك لهذا المشهد الجميل الذي كتبته لي عن بطلي المفضل كلكامش، نهاية النص أوحت لي بأنك ستفعلين مثلما فعلت نيسابا.. أم أن ذلك مجرد تخمين؟

أنت دعوتني للحياة.. هل أنت سيدوري أم نيسابا؟

لقد وضعتني في الحيرة من جديد.. اكتبي لي.. سأحاول إعداد المشهد وتهيئة أجواء مناسبة لتقديمه في أحد مهرجانات المسرح التجريبي، سأكتب لك رسالة أخرى لأنني مسافر غداً إلى ويلز لألتقي أصدقاء عرب في جامعة بريستول وأعرض عليهم المشروع.. مشهدنا المسرح الذي أعتز به وسأحاول تقديمه بما يليق به وبنا تحياتي إلى أمنا حياة، أعلم أنها لا يمكن أن تسامحني، لكما أشواقي ولك أنت كل الحب الذي تستحقينه..

زياد

****

الفصل الثامن

(1)

كل ما يسمعه غسان يقال بصيغة الماضي..
كان، كانوا، كانت، كنا..
يردد وهو يرنو إلى الصور التي التقطها:
-يا لها من لغة راعشة، أن تكون الحياة كلها بصيغة فعل ماضي..
-ماذا عن الحاضر؟.. من أين يأتي المستقبل إذا لم يكن ثمة حاضر يحمله في أحشاءه الحاضر الموؤود شغله الشاغل ومبتغى روحه سيكون له، وسيحتجزه في لقطات حية ويدخره في خزانة الرؤيا؟..

سوزان تريد القفز إلى المستقبل، وجودها يتكثف في رغبة واحدة.. الرحيل نحو مستقبل ترسمه أحلامها المكسورة في حاضر لا تملك منه شيئاً..

أمه، تبدد الحاضر بتذكر ما مضى..

حياة أيضاً على ما عرف عنها أخيراً تعيش حاضراً معلقاً بخيط واهٍ إلى الماضي المحطم.. لكل واحدة طريقتها لنسف الحاضر ودحضه، فإما قفز إلى المستقبل المجهول وإما التريث في الماضي والالتفات الدائم إلى ما وراء الأمس..

على ما عرف من سوزان، إن ميساء ابنة حياة تعيش الانفصال ذاته مثلهن، تحيا ذاكرتها على تاريخ البلاد العتيق وتدمر الحاضر بالعيش في أمل عودة زياد أو لقائهما بفضل معجزة في زمن ما. وأرض ما..

تحيا الارتداد في ماضيين ماضي البلاد وماضي الآسرة.. الحضارة الغائبة. والأب الغائب.. وحده سوف يأخذ الحاضر إليه ويحياه برغم عسره، سوف يدونهُ في صور، ويحفظه لكي لا تغيب علامات العذابات عن ذاكرة الآتين إليه في الغد..

سيحياه مع سوزان أو بدونها، مع أمه أو بدونها مع كامرته ولا سواها.. سيكون الحاضر مسافة فعله الذي يقاوم به فناء الأشياء وتحللها..

بعضهم يرى الحاضر مثل معزل لمرضى أصابهم البرص فينأى عنه، الآخرون يبقون أمام نافذة محمية بزجاج لا يشمون رائحة ولا يلامسون هبة ريح من حاضرهم، غيرهم يحيونه بكل عذاباته وعوزه وأوجاع الحروب، هو من الفئة الأخيرة، لا يبدد اللحظة ولا يذكرها..

الصور ملآى بساعات الزمان.. الصور مكتظة بالعيون، مزحومة بالخطى.. الصور تئن لفرط المتألمين فيها، يسمع أنين الورق في الليل عندما يعلق الصور المطبوعة على حبل لتجف بعد انتشالها من حوض التحميض..

يرى العالم أكثر عرياً.. يرى الغبار أكثر قتامة والأرواح أضحيات تعلق على حبل في صورة تقطر نوراً لتضيء الحقيقة..

سئم تكرار الألم، سئم عذابات الحرب التي التهمت شبابه.. قاتل فيها وعاش في مواضع تحت القصف أو وراء المتاريس في البراري تحت الشمس وأمطار الشتاء..

كان يحتمي جيداً وراء خطوط الموت بنظرته التي تلقط ما وراء القذيفة وما بعد لحظة الانفجار..

يخزن الصور في ذاكرته ويعيد صنعها في كولاجات يتقنها ليقدم صورة الحرب على حقيقته سوادها..

نظرته الكاسرة نظرة صقر ينظر إلى الأرض في زرقة السماوات ويرى الكآبة تتدحرج في القلوب، ونظرته تكنس الظلمات وتكشف عما خفي وراء لحظة الحشرجة تحفظ عيناه آخر صورة للراحلين في شهقة الاحتضار.. يشعل الضوء الأحمر في الاستديو، ويعيد صياغة شكل الصرخة وألم اختراق الإطلاقة للجسد.. حرقة وجع وجنون.. وعطل في منطقة الخرق.. أي ألم سيظهر على الوجه أية أوجاع ستقلص الملامح..

تعلم في القتال المراوغة.. كانت شجاعته تدفعه ليتعرف أساليب المواجهة والمشاغلة أو الانسحاب يعرف قواعد الأمن في الثكنات المؤقتة ليديم حياته خارج الألم..

يتعلم كل آونة كيف يحرس حياته، فإن تهاون لحظة فإن الآخر فائز لا محالة بدلالة موته هو..

مدن للموت، مدن للشمس، ومدن للمطر، ومدن للخوف، وكلها مدن تولد من كامرته، يصير الإنسان معلقاً على تسديد نظرة يقظة أو تصويب إطلاقة معينة.

هناك تحت البروق الليلية وأنوار القنابل الكشافة والسحب السوداء كان في موضع دفاعي عن مخفر حدودي..

معه كتاب أو مجلة يروي فيها الكاتب والمصور حكايات عن ذئاب القطب الشمالي البيضاء بالصورة والنص أمضى غسان ليلته يتابع النص والصور العجيبة للذئاب الفاتنة الفائقة الجمال

وهي تشم عطر زهرة تفتحت جوار الموت والفريسة، أو تقضم عشبة عطرة بخطوطها الملوثة بدم الفرائس النقائض تصنع الصورة الجيدة، هكذا يفهم الفن.. أضف النقيض لتعرف حقيقة العالم..

الذئب يصيح بوجه القمر فتنزف النساء ويتفجر رعاف الأنف لدى الأطفال ويستذئب بعض البشر.. ويطوفون في الظلمات مسبوقين برائحة الوحش..

من نافذة الموضع الصغيرة يرى عينين متوهجتيّن تحدقان فيه.. عينا عاشق أضناه الشغف، عينا ذئب جميل وصل إلى غاياته بتحديد موقع الفريسة هذا الإنسان القابع في قلب الحرب وبين مخلبي الوحش الأكبر.. الموت..

كان تراث القصص والحكايات لوثت ذاكرة غسان بأباطيل كثيرة عن الذئاب.. هاهو الذئب الجميل ينظر إليه، ويلحق العار بالقصص القديمة، يحبه ويتعاطف معه يعرض عليه صداقة الكائن في جوهر حقيقته.. قبل أن يشوهه خوف البشر..

كل ينظر إليه مفتوناً، لحظة عيش في الحاضر لا علاقة لها بتراث الإنسان الخائف ومفصولة عن علاقة الذئب بتاريخ القتل..

القتل شيء مؤجل بين الإنسان والذئب..

يتقدم كل منهما بروحه نحو الآخر.. يتواصلان بعيداً عن الحذر والخوف..

يرنو الذئب مثل رجل يسير نائماً.. ذئب لا أول لـه ولا آخر..

يجتمع فيه تاريخ الضواري المظلومة بتصورات البشر منها..

اتهموه بدماء أنبياء، ومصائر أمم، وعجائز ينتظرون كعك الحفيدة المحمول في سلة معطرة بشذا الغابات..

إنه الآن أمامه، مثال البراءة الأولى الحية التي دمرها الإنسان بحروبه من أول الكهف حتى التهديد بآخر غزوات رعاة البقر..

تنقلب صورة الوحش في ذاكرة غسان الوحش في رأس الإنسان لا في رأس الذئاب..

يهمهم الذئب ويسدل جفنيه على النظرة، يميل رأسه مثل طفل طري العظام.. ويبطل آخر أكاذيب الإنسان عن ضراوته..

كان يقول لغسان:

-أنا غير مصدق ولا مكترث لما يقال عني..

تقول لـه دهشة غسان:

-نحن، أنا وأنت نتاج هدنة بين ذئب غافل وصياد أخطأ التصويب..

ابتسامة الذئب تقول له:

-نحن مصادفة لن تتكرر..

-ما نحن فيه هو فعل الحاضر.. أنا وأنت والحاضر.. انعقد اتفاقاً؟
-قانون الذئاب ارتياب دائم بالإنسان..
-أنت محكوم بضرورة المخلب..
-أنت تحكم عليّ بماض صنعه الإنسان عن سلالة الذئاب ولم يؤخذ رأينا فيه.
-لعبة القتل والإماتة والفتك قياس الوجود الحي للإنسان والذئب على حد سواء..
-تلك لعبة البشر..
-وسر بقاء الضواري.
-أنت تحكم ببراهين مستعارة من أكاذيب الإنسان عن الوحوش.
-لكني أراك والحاضر مجرداً من تاريخ الذئاب..
-أنا ارتاب بكل شيء..
-دائماً؟
-الديمومة تعني الاهتمام بما يأتي بعد الحاضر بالزمن وأنا لا أعترف بالزمن..
-أين أنت من الزمن.. هل أنت فيه؟
-أنا فوق الزمن.. لأن الزمن من لعبة إنسانية..
-أنت تحب اللعب والذئب مولعة باللعب..
-وماذا يفعل البشر؟
-نحن نمسك بالزمن ونغلق عليه لحظة الحاضر..
-أرأيت أنتم مولعون بالأوهام ورثة الأقفال والقضبان..
-ألا تقبل الهدنة بيننا؟
-أنا أنقض أي شيء متى أشاء..
-ولكني أؤمن ببراءتك.. أسقط عنك بإعجابي تاريخ القتل الذي ألصقوه بك.
-أنتم تروجون للأكاذيب والظلمات..
-وأنت؟
-أروح للنوم.. أريد أن أذهب..
-لا.. لا تذهب..
-أريد أن أنام.. لماذا تريد أن تحرمني من لذة النوم وقد أقضت حروبكم أحلامي؟
-دعنا نتحدث قليلاً..
-سئمت الحديث مع البشر، إنكم تملكون قناعات مليئة بالأخطاء وأنا لا أبالي بقناعاتكم.. أريد أن أستغرق في لذة النوم..

-لماذا جئت إليّ؟

-أخطأت الطريق.. كنت أظنني سأحظى بفريسة.. فوجدت صديقاً..

-انعقد اتفاقاً.

-الصداقة تحدث دونما اتفاق.. هكذا.. تحدث من تلقاء نفسها.. وداعاً..

بعد برهة، يفتح غسان عينيه، لا يرى ذئباً ولا نهاراً إنه الليل، وعليه أن يذهب إلى نوبة حراسته.. وعواء الذئب البعيد يهز ساحة الحرب البشرية، يهرب من حرب البشر إلى براءته من كل دم بشري.. اتهموه به..

ود غسان لو كان الحلم ممكن التحقق إذن لصور ذلك الذئب الساحر واقتطع تلك اللحظة العجيبة من تاريخ الوحش، وادّخرها على ورق صقيل..

همهم: أيها الذئب الغائب، أحبك ولن أقتلك فلا تقتلني..

يسقط الكتاب المخصص لذئاب القطب الشمالي تنطبع صورة وحش الحلم الذئبي على حدقتي غسان.. يغدو ذئباً بريئاً يقتص من كائنات لا يعرفها مدفوعاً بشهية القتل الذئبي..

يطل من النافذة فيرى المعجزة: ذئب نائم على الهشيم اليابس، ونبضه يتردد تحت الفراء الأغبر في استرخاء العنق على التراب..

عندما يسمع الذئب حركة الإنسان عند النافذة يهب من نومته ويمضي في مدى الفجر غير آبه لشيء وكأنه وقع على وثيقة الهدنة المستحيلة بين الذئب والإنسان..

صور ذئاباً مختلفة في البراري، في أقفاص حديقة الحيوان ومتحف التاريخ الطبيعي لكنه لم يعثر على ذئب بهي الجمال مثل ذئبه الذي قلب معادلة الوحش والفريسة إلى معادلة الألفة وتجاوز الغريزة..

ابتدأت الحرب مرة ولم تنته.. وغسان عاد إلى الحياة، مثلوم القلب بموت أصدقاء وأحبة، سنوات في التصوير وعمل أشياء لا رابط بينها، سنوات يستغرقها لترميم الروح بالصور والغيوم والجمال.. بالحب أولاً، بسوزان الجميلة التي التقاها مصادفة مثلما يحدث أن يبزغ الجمال في اللحظة الخارقة.. لم ينكسر حلمه، لبث واقفاً على حافات المخيلة رغم الشظايا.. في اللحظة الخارجة عن مرض الزمان المستديم بالحرب.. وجدها..

السعادة التي انبثقت من لقائهما قامت على تدمير كل احتمال لارتباطهما.. لا يعرف كيف حدث هذا.

كانا يسيران في ممشى واسع يقطع متنزه جزيرة بغداد.. وعلى جانبي الممشى أحواض زهور ومروج ثم مرسى للزوارق، والنهر ينحرف إلى بساتين (التاجي) ليتألق ظل النخيل في مياهه الراجفة كانا يسيران وحدهما تقريباً دون وجود بشري في

الفضاء الأقرب إليهما.

تحدثه عن حياته هي المنفية عن المجتمع لسبب لا تدركه بل لا تفكر فيه كثيراً، إذ تكتفي ببعض صديقات وأحلام، وممتلكات، معها مربية العائلة المسنة (أم توماس).. معها حارس وبستاني، معها كلب من فصيلة البولدوغ وآخر من كلاب الصوصج الطويلة قصيرة الأرجل.. معها ببغاوات وطيور حب، وبركة أوز في حديقتها المنحدرة نحو دجلة..

تقول له:

-رأيتك في أحلامي.. كنت مجرد حلم، ثم أمسكت بك.. إنك حقيقة.. شيء مبهم وغامض تحول إلى حقيقة..

-أول مرة التقيتك فيها كرهتك..

-ألم أعجبك..؟

-ربما كموديل لصور مدهشة، ربما..

-ألم تعشقني من النظرة الأولى؟

-كيف يعشق من تغمره مشاعر الكراهية أولاً؟

-إذن كيف تقبلت صحبتي؟

-بحكم الاعتياد..

-لماذا تقابلني هنا وهناك؟

-بحكم الاعتياد أيضاً..

-أنت تعاملني كصورة فوتوغرافية تعلقها أمامك على جدار فتعتاد على رؤيتها..

-حتى إني لا أعود أراها..

-لكنك لا تستطيع الاستغناء عنها..

-تحكم العادات الموجع..

-من أنت غسان؟

-أنا.. عابر في الزمن، يترك على الريح رائحته وعلى التراب آثار قديمة..

-وماذا ستترك لي؟

-الغياب.. غيابي.. فأنا غير قابل للحضور دائماً بين يدي الجمال..

تتمسك بهذا الرجل الذي يغيب نفسه ويترك لها ظلاله المتعددة مثلما يترك ظلال الأشياء على الورق.. تعامله على هذا الأساس مثلما يعاملها باعتبارها موديلاً صالحاً للتصوير..

هو بينه وبين نفسه لا يقبل غيابها، يكابر في حضورها، ويعمل في الظل والعتمة والصمت ليحتفظ بها..

-الشمس.. (تقول سوزان).. حارقة، لنجلس في هذه الكافتيريا..

يجلسان بين الشمس والظل، يرقط ثيابهما الضوء، مستديرات صغيرة تجعلهما يبدوان مثل فهدين متحفزين..

يرى يدها اليمنى، على الساعد خدش قديم، الأظفار مطلية بشعاعات شمس مذهبة.. يمد يده عبر المائدة المستديرة ويلمس أطراف أصابعها.. تقدم لـه يدها كاملة فيحسب يده.. تضحك من تردده..

-أنت تريد أن تلمسني.. فلماذا لا تفعل؟

يسرعان في سيرهما بين الشمس والظل وحفيف النخيل وتمايل الأشجار المزهرة.. يشعر غسان أنه يتحرك حقاً في منطقة الحاضر الخطرة.. لم يعد للزمن من أبعاد سوى لحظة الحاضر وحدها..

سنة واثنتان.. وربما ثلاثة وغسان يفسخ خطبة ابنة خاله له، ويبتر علاقة بامرأة أخرى.. سوزان في بيته، أمه في عرس ابن أخيها.. سوزان معه..

يفكر: ما اسم هذه السعادة الصاعقة؟

تعانقه وترى في عينيه صورة أخرى لها.. تراها في مرآة رغبته.. ترى نفسها في ارتعاشة فمه.. ترى وجهاً، ترى يدين ترى فماً ثم لا تعود ترى في الغرفة غير صورة قديمة لرجل ملتحٍ يرتدي بيريه سوداء تثقبها نجمة وفي فمه سيجار وله نظرة عاشق أندلسي..

-من هذا؟..

-ظل من ظلال الإنسان الكبيرة..

-أنت تحول كل شيء إلى ظلال..

-هذه هي الحقيقة، كلنا ظلال لظلال.. لا شيء يمكن الإمساك به.. لولا الكاميرا.

-لكنك تمسك بي الآن؟

-من قال أنني أمسك بك؟.. ألا يمكن أن تكوني شبحاً شبيهاً بامرأة جميلة.. صورة شفافة سرعان ما تتلاشى..

شهران، وأربعة، وربما ستة أشهر.. لا يعود يراها.. تقطع خطوط هاتفها.. لا ترد على مكالماته.. تختفي، تصمت، تختفي.. تخمد صورتها.. ولا يبقى سوى شيء من دخان..

تهاتفه ذات مساء:

تقول له: لقد خطبني عبد المقصود الغنام.. أتعرفه؟ إنه أثرى أثرياء بغداد في السنوات الأخيرة..؟

-..؟

يقول لنفسه: ها قد نقض الوحش الهدنة.. العالم مشوش بدخان أسود..

الجمال يبدد هيبته والموت يسري في يده وجسده ويتوغل ألماً في أحشائه وسوزان تأتي إليه في الاستديو تحمل علبة كارتون كبيرة ومغلفات هدايا..

-أنت كنت سلبياً جداً، لم تسأل.. لم تتقدم خطوة، لم تمنحني أي أمل.. كنت منشغلاً بالظلال لم تبذل أي جهد للاحتفاظ بي.. أنا إمرأة متطلبة.. يصعب إرضائي.. أنت رجل غير مبال.. تنتظر أن يطلبك الآخرون، ولا تجيد التعامل مع امرأة من طرازي، لكني أحببتك.. سأواصل حبك.. يصعب نسيانك..

-استيقظ الوحش فيك.. أهنئك على أية حال..

تجلس قبالته غير آبهة بعذابه وتخرج قالب حلوى كبير من العلبة وتضعه أمامه..

-ألن تحضر لي القهوة، أشتاق لقهوتك..

يلبث مذهولاً أمام صفاقة مشاعرها وأقنعتها المتغيرة وهي تثرثر وتضحك وتتحدث عن عبد المقصود وكأنه إحدى مقتنياتها.

-أتريد أن أعرفك به؟ إنه من أثرى أثرياء بغداد بوسعه تمويل أي مشروع يخطر على بالك، معرضك الذي تحلم به على بغداد، ألا تريد رؤيته؟

-خذي أشياءك وغادري..

-أردت للقائنا الأخير أن يكون احتفالاً استثنائياً بحبنا.. سأبقى أحبك أنت رجل لا ينسى، يطفئ أضواء الأستديو ويرتدي سترته..

-على أن أذهب، لدي عمل.. خذي أشياءك وارحلي..

-لن تلتقط لي صورة لذكرى وداعنا؟

-أرجوك.. خذي أشياءك وارحلي..ـ

(2)

بإمكان حب مستعاد من العدم أن يحيى في الإنسان غريزة السعادة وينشط حاسة البقاء.

شيء ما في سوزان يجعله يمضي مسحوراً مغمض العينين نحو وديان الجن و يسير منتشياً على انحناءات قوس قزح، شيء ما لا يعرفه في هذه المرأة يدفعه ليتثبت بالحاضر ويتحكم به كيفما شاءت أحلامه.

صوت سوزان يثير لديه اضطرابات العشق وحالاته المتناقضة، فما بين لهفة ونفور وما بين مقت ورغبة ومرح وأسى..

يلاحقه الصوت ويرنح خطوته ويشوش وعيه لكنه يقاوم هذا كله ويحاول التحكم بإمكاناته ليسيطر على طاقة هذا الصوت المتدفق من بئر أنوثتها ويوجهها حيث يشاء.

يكتشف بعد هذا التماسك والثبات أن بإمكانه تحويل صوتها إلى ظلال لونية على درجات مبتاينة من اللون الأسود والأبيض تتوالى على ورق التصوير الحساس، ويعرف أنه طالما وقع على سر قوتها في هذا الصوت فسوف يتحكم بالنبرة ويجعلها فيض

نور ينهمر على الورق ويشكل تخطيطاً عجائبياً للكلمات، ما كان أمامه إلا أن يحب سوزان التي أزاحت صور سواها من النساء اللائي عبرن ماضيه واستقرت وحدها ماثلة في عينيه.

عندما هجرته استبقى لديه صورتها الأخرى التي استطاع الإمساك بها في لحظة من لحظات الحقيقة واقتنصتها عدسة كاميرته، إنها الصورة الإنسانية الخفية المغايرة لصورة سوزان المرئية وسوف تكون مثيل كلمة سحرية ما أن يرددها المرء أمام شخص مسحور حتى يعيده إلى حقيقته الأولى.

سوف يعمل على تحوير صفاتها وتعديل سجاياها على امتداد سنوات انفصالهما فكأنه بعيد بناء شخصيتها عبر سلسلة من الصور الفوتوغرافية البارعة. هذه التجارب والمحاولات توصل إلى نتائج مدهشة ونجح في إدخال ظلال متنوعة من المؤثرات على ملامحها المتعالية وتعبيراتها غير المستقرة..

أضاف لبعض صورها زرقة الفيروز وعلى بعضها الآخر احمرار الشفق.. بينما أغرق الصور الأخرى في الأصفر الشمسي.. جرب كل ألوان الطيف، ثم منحها القليل وعندما أطلق النور عليها تلاءمت التعابير القاسية وأمحى شيء من الملامح وطغت في العينين البراقتين نظرة شغف تبث أنوثة الوجود إلى رجولة العالم الوعرة..

امتلأت جدران الاستديو بهذه التنويعات المتكاثرة لصور سوزان فاقترح عليه أحد أصدقائهما أن يقيم معرضاً لها بعنوان (استحالات)..

يضحك غسان ويقول:

-صور سوزان شأن شخصي جداً لا علاقة للآخرين به، هذا عمل قمت به لنفسي ولو عرفت سوزان بالأمر لرحبت بفكرة المعرض.. لن يحدث شيء من هذا.

نجحت الصور إلى أقصى الحدود في إعادة توازنه إزاء موضوعة حبه المفقود وساعدته لإبقاء هذا الحب مكنوناً في مدخرات فنه.

عندما فاجأته في تلك الظهيرة الصيفية بزيارتها حاملة اللوحة، كان قد أنجز مشروع صورها الألف وعمره إحساس غامض يسنده حدس قوي بأن شيئاً ما غريباً ومفاجئاً سيحدث له..

لم يخبرها بما صنعه ولم يحاول المزايدة على حبه لها أو الكشف عن أوراقه السرية كلها، ولم يفصح عن جميع أحلامه التي ساندته ليبقى في عداد الأحياء بعد هجرها المفاجئ له..

يعرف غسان أشياء عن طبائع النساء.. يعرف أن امرأة مثل سوزان ستكون عرضة للتغيرات، والتحول المفاجئ في حالاتها، وسوف تباغته كل حين بنوبات شغف أو انتقاضات غضب، أو تمضي معه إلى أقصى نهايات الحب، لتعود فنهجره أياماً،

وتستغرق في أحلامها الأنثوية عن تغيير مصيرها أو صنع مستقبل في بلاد نائية مع شخص مجهول.

سوزان الحقيقة لا تظهر إلا نادراً وما يرى منها غير وجوهها الزائفة وصورها المتبدلة، يراها بصورة امرأة متصنعة الأناقة ثم يراها في ظهور رومانسي بثياب ناعمة هفهافة مستغرقة في الاستماع إلى الموسيقى ثم يرى صورتها الأخرى التي ترتدي فيها قناع المرأة الجادة وهي تضع نظاراتها وتنهمك في القراءة أو تتعلم لغة جديدة وفجأة تطغى صورة المرأة المضطربة المغلولة إلى أنوثتها على الصور كلها وتندفع سوزان حينئذ إلى التفكير بالخلاص عن طريق التحول إلى رجل لتسقط كل الأحكام والأغلال التي ابتدعت لترويض النساء.

حياتها على هذا لا تزيد عن كونها ألبوماً لحالات اجتماعية ونفسية متراكمة تخفى تحت تنوعها المربك سوزان الأخرى، الرقيقة، المهدورة الزمن المحرومة من الألفة والحب والحلم..

غسان بغرابة حياته وعزلته وتوازنه وسوزان بانفتاح آفاق حياتها وافتقارها إلى التوازن سيصنعان ثنائياً متناقضاً ومتناغماً في الوقت ذاته..

هو بصمته وانشغالاته وهي بترفها وضجرها وحيويتها اكتشفا وعرفا أن للاختلاف فعل السحر الذي يسعف حباً أصابه الإغماء وإعادته عن طريق صدمة سحرية إلى الحياة..

طوال أسبوع تجولا معاً في أنحاء بغداد ما بين الكاظمية وبغداد القديمة وما بين الكرادة والجعيفر وشارع غازي وما بين أسواق السمك في الشواكة والدورة حتى المدائن وبوابة بغداد وحصن الباب الوسطاني ومسطر العمال في ساحة الطيران إلى الباب المعظم، التقط غسان صوراً للأشخاص في إطار من مؤثرات المكان..

صور الحيوات المتداعية لأناس محاصرين ونساء سحقهن غياب الرجال والعوز تغلغل بين المستولين والشحاذات وباعة الطمأنينة الذين يلوحون بالأدعية والأحجبة لمن اضطربت قلوبهم وتناوشتهم الهموم وانقطع عنهم الرجاء..

صور وجوهاً لآخرين في جولات قام بها منفرداً وتابع اختلاج الحياة وتعاقب الأزمان عليها وصور الخطى ملاحقاً أقدام العابرين من الرجال والنساء وهي تنتقل ما بين الأرصفة والشوارع كل خطوة لها اتجاه يتقاطع مع اتجاهات الخطى الأخرى.

صور خطى مخذولة وأخرى مرتخية أو مترددة وخطى راسخة.. صور أقداماً بأحذية بالية وأقداماً لرجال حفاة وأقداماً تنتعل أخفافاً من البلاستك وأخرى تتنعم بأحذية ثمينة من الجلد الطبيعي يباع الزوج منها بخمسمائة دولار أو أكثر بكثير كما صور أقداماً ببساطيل عسكرية وأقدام فتيات بأحذية ذات كعوب عالية متآكلة.

أمضى الظهيرات في الأزقة المنسية وعثر فيها على وجوه

ترتسم المأساة في أخاديدها والتقط صوراً لوجوه بنات صغيرات يتراكضن في العشيات بين تقاطعات الطرق وتحرشات العابرين وبعض سائقي السيارات وهن يعرضن بضاعة هزيلة من العلك والسجائر وعيدان البخور والمناديل الورقية وصور أقداماً موحلة لصبيان يخوضون في مياه دجلة وهم ينخلون تراب دكاكين صاغة الذهب ويحلمون بالعثور على ذرات هاربة من المعدن الأصفر.

قبل عودته إلى البيت يلتقي بصديق في أحد شوارع حي المنصور ويدعوه لتناول وجبة خفيفة في أحد مطاعم شارع (14 رمضان) أمام المطعم دكات مصبوبة من الإسمنت والحصى البارز وعلى إحداها كان يجلس رجل يرتدي ملابس بالغة الرثاثة ويعتمر (كاسكيت) رمادية اللون ويدخن بنهم وهو ذاهل عما حوله، ما أن رآه غسان حتى تملكته شهوة التصوير ونسى الصديق ووجبة الطعام واقترب من الرجل وقال له:

-أتسمح أن ألتقط لك صورة؟

-لم يعبأ الرجل بالسؤال وصاحبه بل أشاح بوجهه عنه وواصل تدخين سيجارته بشيء من التوتر والنهم العصبي ثم حرك يده بما يعني:

(إنك بطران ماذا تفعل بصورة رجل مثلي؟)

يضبط غسان أبعاد الصورة ويصور الرجل بلقطات متعددة مقربة أو متوسطة من جميع الزوايا وعندما يتمادى في التصوير يضجر الرجل منه فيغادر الدكة ويده تقبض على كيس عتيق ظهرت منه أطراف ثياب مهترئة وصحف قديمة.

يتبعه غسان ويتمتم باعتذاره:

-أعتذر ما قصدت إزعاجك.. أحببت ملامحك الحزينة فصورتك..

-ماذا تفعل بوجه رجل تائه لا يدري من هو وإلى أين يمضي!!

-أستطيع أن أساعدك؟ ألا تتذكر شيئاً؟ ألا تعرف بيتك؟

-لا أعرف شيئاً.. سرت وسرت منذ زمن لا أدريه لا أدري كم من الليالي مشيت سرت مع مسير الأنهار ومررت بمدن وقرى لكني لم أتعرف إلى شيء.. ولم أعثر على علامة.. لا بد أن أواصل.. أمشي.. أمشي.. لم تكن أنت السبب.. تعرف أنت وأعرف أنا سبب هذا الذي أنا فيه.. لذلك علي أن أمشي.. أواصل السير، ربما أعثر على أمل أو شيء.. لا أدري لا أدري..

-ألا يمكنني مساعدتك؟

-لا.. كيف تساعدني وأنا لا أعلم شيئاً عن نفسي؟ سأمضي وحيداً ولا بد أن أصل إلى شيء.

-لكنك مرهق فكيف ستواصل السير وأنت بهذه الحالة؟؟ هل تقبل دعوتي لتناول الغداء معاً؟؟

-لست متسولاً يا رجل اتركني لحالي.. أمضيت دهراً وأنا

أتجول في الأرض نمت وصحوت وجعت ومرضت.. ولم أعرف شيئاً كل ما عرفته أنني تبعت سير نهر لا أعرفه عند خروجي من إيران فوجدت نفسي بعد زمن هنا..

-سأعطيك صورك غداً، هل سأجدك هنا؟

-لا أدري أين ستجدني.. أنا نفسي لا أدري أين سأكون..

يفترق الرجلان.. غسان إلى المطعم حيث ينتظره صديقه والرجل التائه إلى لا مكان حيث تقوده خطاه الضالة..

عندما يسود الظلام غرفة التحميض وتنغمر بدفء اللون الأحمر يتحدد العالم بين يدي غسان بتلك اللقطات التي تتضح معالمها بالتدريج في حوض التحميض.. يعلقها على الحبل.. الدنيا مغسولة بالحامض ومنشورة في العراء..

يحس غسان بنعمة الحب التي تسند يقين الوجود، وربما تثير شهوة الأبدية.. لديه إيمانه بما يفعل.. طوال سنوات وهو يهيء نفسه لإنجاز هذا المعرض.. كان مجرد حلم يراوده.. انتظر بإخلاص هذه اللحظات التي ستغير حياته.. وتضعه على حافة اليقين..

ترك الاستديو وليث يعمل في البيت، لم يشأ أن يتطفل على عمله أحد من زبائن أو أصدقاء..

..الآن، اليوم.. فقط سيعبر من ضفة الأحلام إلى لحظة التحقق.. وسوف يضع نظرته موضع اختبار، وإنجازه موضع فحص ونقد..

سوف يتيح لـه عمله أن يوجد حقاً في الحاضر، أن يغوص عميقاً في مادته ويتقمصه ويتلذذ به.

يخبره صنع الأطر الخشبية أن الأسعار قد ارتفعت كثيراً خلال الأسبوع الأخير في ظل التهديد المتزايد بالحرب.. وسوف يكلفك ذلك ثمناً مضاعفاً.

-لا بأس.. هيء الأطر وستدبر أمري.. لا عليك.. أريدها في الغد..

تبيع والدته إحدى الأسورتين المبرومتين من الذهب القديم اللتين تحتفظ بهما لأمرين:

أداء فريضة الحج إن تيسر لها ذلك.. أو لتكاليف الجنازة عندما تحين ساعتها..

-أمي.. سوف أعوضك عنها.. وسترين..

-الأسورة الأخرى تكفي.. الأحياء أحق بها مني.. فلا تقلق من أجل الموتى..

(3)

تضيء حياة مصباح غرفة الضيوف، منذ زمن لم يزرها أحد.. تتغير العلاقات في أزمنة الحروب، يبتعد الأقربون ويدنو..

الأبعدون.ـ شيء من هذا يحدث الآن..
تدخل سوزان مشرقة كالنهار أنيقة ومعتنى بجمالها، تبتسم بمقدار مقنن لتتألق قسمات وجهها، ابتسامتها مصطنعة وهي تتخذ وضع سيدة مترفة ببدلتها الرمادية ومجوهراتها المصنوعة من الذهب الأبيض والأصفر.
تجلس على الأريكة المصنوعة من مخمل بلون الرمل قبالة اللوحة السومرية التي تحتل مركز الجدار أمامها..
-لوحة رائعة.. من أين حصلت عليها؟
-إنها هدية غالب لي في ذكرى زواجنا الأولى، رسمها صديق له.. هاجر إلى بلد أوروبي ولم نعد نسمع أخباره..
في ركن الغرفة الأبعد منضدة مستطيلة وضع عليها صندوق كمان ميساء المغلف بالجلد الأسود ومعه دفتر النوتات..
-حياة.. غسان يريد أن يزورك..
-وقتما يشاء.. غسان يريد أن يزورك..
-أيناسبك مساء غد؟
-على الرحب، سأكون بانتظاركما وسنتناول العشاء معاً..
-لا.. سوف أدعوكم إلى بيتي أنت وميساء وغسان.
-أخشى أن لا تكون ميساء متفرغة مساء الغد قلديها تدريبات في قاعة الرباط..
-هل ستعزف مع الفرقة السمفونية؟
-مع الفرقة، نعم، وستقدم أمسية منفردة في حفل مستقل..
-وأخيراً تحققت أمنيتك، يا لـه من خبر سعيد، سنحضرها كلنا..
-مؤكد، سيسعدنا ذلك.
-حياة، هل أستطيع مساعدتك في شيء؟.. أعرف أنك منهمكة في أشياء كثيرة أقصد أن أساعدك في إعداد العشاء..
-شكراً، كل ما أريده أن أراك بخير..
-أعتقد أنني سأكون بخير في الأيام القادمة..
-وماذا عن اليوم؟.ـ ما هذا التوتر الذي يفضح ما بداخلك؟
-إنه أمر طارئ سيزول..
-ما الأمر يا سوزان؟
-غسان يرفض فكرة السفر معي..
-أما زلت مسحورة بفكرة الرحيل؟
-ألست على حق؟
-المسألة ليست في من هو على حق ومن هو على خطأ.. الموضوع أعقد من ذلك بكثير..
-كنت أتوقع أن أجده متغيراً.. أن أراه واقعياً ويناقش معي

الموضوع بطريقة عملية.
-حاوريه..
-يرفض أي حوار في موضوع الرحيل إلى الخارج..
-دعيه إذن، لا تواصلي الضغط عليه أكثر من ذلك..
-لم أعد أطيق البقاء هنا.. لا أريد.. أحس دوماً أن حياتي مؤقتة هنا.. أريد الاستقرار في بلد مستقر..
-وإذا رفض غسان، لن يمكنك السفر بمفردك.. ألهذا تتمسكين به؟
-لا.. حياة.. أنا أحبه، تعرفين ذلك..
-هذا لا يمنع أن تستفيدي من وجود رجل في حياتك..
-يرفض غسان أن نتزوج الآن.. يقول لم يحن الوقت بعد.. أمامنا الحياة بكاملها.
-وإذا لم تتزوجا؟
-لا أدري ماذا سأفعل؟
-قد تجدين طريقة.. مثل سعيك المجنون للتحول إلى رجل..
-كان عليّ العثور على وسيلة، أية وسيلة لإنقاذ نفسي من كابوس عبد المقصود..
-وبعد أن أسعفك القدر بأن تكوني أرملة عبد المقصود.. تريدين السفر لسبب آخر تخترعين لنفسك مشكلات خرافية، ثم تعيشين في ملابساتها وتنهار أعصابك وتبدأ الدوامة من جديد..
-حياة.. دعينا من هذا الآن، كل شيء يحدث في أوانه.. حقاً أخشى أن نسبب لك إرباكاً وتعباً بزيارتنا.. اقترح أن تكون جلستنا في الحديقة، لدى غسان فضول كبير لرؤية (حديقة حياة)..
-كما تشائين.. البيت تحت تصرفكما الحديقة تزدهر هذه الأيام.. فقد تفتحت زهور المرجان الأحمر وبعض الزنابق.. كم أنا سعيدة بهذه الزيارة.. لم أرَ غسان منذ وفاة والده.. لا.. لا.. زارنا مرة مع والدته عندما سمعا بسقوط الصاروخ على بيت زياد.. وبعدها لم نرهم..
قبل أن تقدم العشاء لغسان وسوزان.. عادت ميساء في وقت غير متوقع، فتحت بوابة الحديقة وهي مضطربة مبهورة الأنفاس شاحبة الوجه لاحظت حياة أنها ألقت صندوق الكمان بعصبية على أول مقعد ويداها ترتجفان..
هرعت إليها:
-ما بك ابنتي ميساء.. ماذا حصل؟
-هذا الوحش (كايد) اعترض طريقي وحاول التعرض لي..
-هل لمسك؟
-لا.. لم أمكنه من ذلك.
-وماذا فعل؟

-شتمته وبصقت عليه، ليس من طريقة أخرى للتعامل مع شخص مثله..
يتدخل غسان:
-من هو هذا الرجل؟
تروي لـه حياة القصة بتفاصيلها والضغوط التي تتعرض لها مع ابنتها منذ نحو ثلاث سنوات لإرغامها على بيع الحديقة لتوسيع مطعمه ورفضها لكل عروضه وإغراءاته بدفع مبلغ خيالي..
-ست حياة.. أرجوك دعيني أتصرف..
-لا.. لا تعرض نفسك للأذى، دع الأمر لي..
-لكنه تمادى، لا يمكن أن تتعرضا لمثل هذه المواقف.. سوف أتصرف..
-ماذا ستفعل؟
-سيكون لدي ما أفعله، أعرف كيف يفكر هؤلاء..
-دع ذلك الآن..ـ
تقول ميساء..
-لقد غادر.. استقل سيارته وذهب..
تقول سوزان:
-ست حياة.. عزيزتي كوني امرأة عملية.. إنها ثروة.. لماذا لا تبيعين؟
-للسبب نفسه الذي يجعل غسان رافضاً للرحيل..ـ
-وما علاقة هذا بذاك؟
-إنهما شيء واحد يا سوزان..
يقول غسان:
-من الصعب أن يتخلى الإنسان عن ذكرياته وأشيائه العزيزة التي تمثل لـه الأمان والاستمرار والقيمة..
-لكنها تتعرض مع ميساء للأذى، وغير مستبعد أن يتمادى أكثر من هذا..
تقول ميساء:
-لأمي أفكار مثالية، فهي معتدة بنفسها وقد أوقعها هذا الاعتداد في مأزق، قلت لها إننا لا نملك ما يعيننا على مقاومته.. لديه المال والقوة، وكوننا نساء يتيح لأمثاله من الجهلة أن يستضعفوا النساء ويحققوا رجولتهم بالإساءة إليهن..
-ابنتي ميساء.. لو كنت تنازلت عن الحديقة.. هل كان الأمر سيتوقف عند هذا الحد؟ سيأتي بعد أيام ليساومني على بيع البيت.. أعرف إلى أين تؤدي التنازلات..ـ
يسأل غسان ميساء..
-متى الحفل الموسيقي؟
-حفل الفرقة السمفونية بعد أسبوعين أما أمسيتي فإنها في

الأول من أيلول..ـ
-سنحضر حفلك وسأصورك، أم أنك سترفضين؟
-يشرفني ذلك أستاذ غسان..ـ
تنظر حياة إلى ابنتها، كم تغير العالم! هاقد نضجت وأصبحت عازفة كمان ستقدم حفلاً بمفردها.. هاهي ابنتي وتغيم عيناها بالدموع..
تلمح ميساء التماعة الدمع المكبوح في عيني أمها:
-أمي.. هذا ليس موعد البكاء.. الساعة لم تبلغ الحادية عشرة بعد..
-كفي عن سخريتك..
-أمي تبكي كل ليلة في الموعد نفسه منذ سنوات..ـ
-أشعر بالارتباك.. شيء ما لا أستطيع تمييزه يقترب.. حدسي لا يخطئ
سيحدث لي شيء ما.. قلبي ينبؤني بذلك..
كانت سوزان هي التي اقترحت هذه الزيارة على غسان بعد أن تعذر عليه العثور على قاعة شاغرة لإقامة معرض لصوره..
كانت سوزان قد اقترحت عليه أن يستأجرا قاعة فخمة في أحد الفنادق الكبرى وستقوم هي بدعوة مصورين وصحفيين وأصدقاء لحضور حفل الافتتاح.
قال لها:
-دعيني من اقتراحاتك الغريبة.. صوري ليست لهؤلاء.. إنها عن أناس لا علاقة لهم بمن ستدعينهم أنت..
-لماذا لا نقيم المعرض في بيتي؟
يضحك غسان:
-بيتك؟.. من بوسعه الوصول إلى هناك في منطقة المسبح، طرق مغلقة، ولافتات ممنوع التصوير.. لا مقترحك غير قابل للتنفيذ..
-إذن سنرى حديقة حياة..
-يا لها من فكرة.. كنت أريد أن أقابلها.. جميل، سنقيم المعرض في حديقة حياة.. قدمت لهم الشاي، بعد العشاء وقالت:
-هذا شرف لي.. أن يقيم غسان معرضه الأول في حديقتنا..
-سأحضر القواطع والمساند غداً وإن سمحت سأصطحب معي أحد أصدقائي لتصميم إضاءة الصور..
-بالتأكيد.. البيت بيتك..
-ألم أقل لك إن حياة امرأة لا مثيل لها.. أحبك حياة.. أحبك..
يضحك الجميع لهذه الفيوض العاطفية المفاجئة..
يقول غسان:

تحدثني عن حياة وكأني لا أعرفها، وكأنها اكتشاف شخصي لها..

تحبها لأنها وافقت على إقامة المعرض في حديقتها.. أترون إن النفعية تتحكم بكل شيء من حولنا..

-وأنت؟.. ما تكون؟

-اسألي ذاكرتك وستجيب..

-أنا أتمتع بمقدرة هائلة على النسيان..

-ذلك أفضل..

-أن أنسى؟

-بالتأكيد.. ليأتي يوم فتنسيننا جميعاً..

-ها قد بدأت تنال مني..

-وهل تظنيني قادراً على ذلك؟

(4)

زيارة غسان وسوزان لها جعلت حياة ترى نفسها وعالمها في ضوء جديد.. أحست بشيء من الزهو لكل ما حدث، وغمرها شعور بالأمان لعرض غسان التصدي لـ(كايد)..

بدا أنهم جميعاً كانوا بحاجة لمثل هذا اللقاء الذي تأخر كثيراً وكأنهم لم يتوقعوا إمكانية حدوثه، ففي اليوم التالي جاء غسان مصطحباً أمه فاحتفت بهما حياة وتعلقت ميساء بالمرأة التي بدأت تروي لها حكايات لا نهاية لها عن عائلتهما الكبيرة التي تشتت أفرادها في زمن الحرب هنا وهناك..

بدت ميساء سعيدة بوجود هؤلاء الأقارب الذين استعادوا رابطة القرابة فمسحوا عنها غبار الزمن ودفعوا بها لتكون محور أيامهم القادمات..

طرأت تغييرات سريعة على الحياة في البيت، وطلبت حياة من والدة غسان أن تسعدهما بزيارات أخرى..

بعد الظهر أحضر غسان القواطع والمساند ومعه سوزان الجميلة..

وحدث حياة عن حياته مع والدته بعد سفر أخته الطبيبة (إيمان) مع زوجها الطبيب للعمل في إحدى مستشفيات (أبو ظبي).

لبثت حياة تراقب انفعالات غسان وحركة يديه، بدا لها مثقلاً بالهموم، وتمنت لو تستطيع التخفيف عنه..

رأت فيه شخصاً مناقضاً لسوزان فهو يرى الأشياء تتجه إلى نهايات محتومة وما على الإنسان إلا أن يكثف وجوده في الحاضر، ويترك فيه أثراً ما، بصمة أو علامة تدل عليه..

حدثها عن ولعه بتوثيق الزمان واحتجاز اللحظات الهاربة في صور، حدثها عن حتمية التغييرات في العالم وتسارع ذلك في

أجواء النظام العالمي الجديد..

-هناك حتميات كثيرة تفرض ضرورتها على البشر.. ما علينا نحن إلا أن نعمل لتسريع حدوث الأشياء، تدخل في مسار التحولات والتطورات..

تقول ميساء:

-هذه فكرة غريبة علي.. دراستي للآثار جعلت رؤيتي للعالم شبه مستقرة، هناك أسباب ونتائج، ولكن هناك المسارات الخفية للأحداث، هناك الحلم الإنساني، هناك الرؤى وتداخلات المخيلة..

-الحتميات لا تتعارض مع الحلم، ولا مع المخيلة، بل إنها تستند إلى قوة الحلم.. لا تتغير من غير حلم مسبق..

تقول حياة:

-غسان، أنت درست الاقتصاد، أليس كذلك؟

-نعم، لكني هربت منه إلى الفن..

-تسأله ميساء:

-هل كنت مرغماً على دراسته..؟

-لا.. اخترت دراستي بمحض رغبتي لكني اكتشفت شغفي بالتصوير.. فقررت أن أكمل دراسة الاقتصاد ثم أتفرغ للتصوير..

-هل هناك دافع قوي لهذا التحول؟

-نعم.. الحرب.. ففي ظروف القهر الإنساني حيث يكون الموت أعلى درجاته، علينا أن نلوذ بالفن..

-هذا ما أحسسته أنا.. لكني لا أجيد التعبير عنه مثلك..

-مع علمي أن الفن لا يشكل حلاً للموت لكنه في الأقل يمنحنا العزاء ويعيننا على تحمل المأساة ووطأة الزمن..

تتدخل سوزان التي لبثت تستمع إلى الحوار الجاري بينهم.

-لا شيء يستطيع التخفيف من العذاب لا الفن ولا الاقتصاد ولا التاريخ الخروج من دائرة المأساة هو الحل..

يضحك غسان ويقول:

-الحضارات تقول نقيض هذا الذي أدليت به.. كل حضارة بلا فن انتهت كما تنتهي جمرة متوهجة إلى رماد تذروه رياح التاريخ..

-ما بك غسان؟.. تحول كل شيء إلى قضية كبرى..؟

-هذه هي الحال يا سوزان، كل تفاصيل حياتنا في زمن الحروب تتحول إلى قضايا أساسية، لا شيء يمكن إغفاله ولا شيء إلا ويؤثر فيما حوله..

تقول ميساء:

-منذ عصور الحضارات الكبرى في سومر وبابل والأشياء تحدث بالطريقة نفسها: الصراع الأبدي بين الإنسان والموت هو المحرك الأساسي لازدهار الحضارات..

تقاطعها سوزان:
-إنكم تناقضون أنفسكم، أنا أرى أن المال هو محرك الحضارات ما من أمة معدمة قدمت حضارة ذات قيمة للإنسانية..
-هذا جزء من الحقيقة –يقول غسان- لكن المال وحده لا يصنع حضارة، لا بد من وجود صراع ما وحلم بما سيأتي، بدون صراعات تذوى الحضارات وبدون حلم ينتهي التاريخ إلى مجرد عماء..
تهمس لـه سوزان:
-أنت تجهر بماديتك..
-أنا لست مادياً بل أنا شديد الاعتداد بالنفس الإنسانية وأحلامها وقدراتها اللامحدودة.
-أنت حالم كبير وطوباوي..
-ليكن.. من منا لم يحلم بالفردوس الذي تسوده العدالة والحب والرفاه؟
تقول حياة:
-من غير أحلامنا كيف كانت ستعاش الحياة؟
يقول غسان:
-لقد نسيت أن أخبرك ست حياة أنا لن أدعو غير عدد محدود من الأصدقاء فقد وضعت في اعتباري طبيعة المكان ولأنني سأقيم المعرض مرة أخرى ليشاهده الباقون.
-كما ترى أنت تقدر الأمور جيداً..
تعترف سوزان:
-أردت أن أدعو أصدقائي ومعارفي لكنه رفض وقال سندعوهم في المرة القادمة، لا عمل لـه إلا إحباط خططي..
بدا عليها الإحباط ورأت أن هناك تقاطعات كثيرة تتكشف في علاقتها المستعادة بغسان، فقد خططت لحفل كبير واشترت للمناسبة ملابس باهرة وأوصت أحد محلات الزهور ليهيء لها ثلاث سلال من زهور الجربيرا والقرنفل والجبسوفيلا واتفقت مع أحد مطاعم الدرجة الأولى لإعداد أطباق كوكتيل من المشهيات ذات القطع الصغيرة والتي تؤكل بعيدان خشبية رقيقة ويسهل تناولها وقوفاً مع المرطبات..
في صباح اليوم التالي أحضرت معها أم توماس لتساعد حياة في الإعداد للحديقة والتنظيف وسوى ذلك وعادت مع غسان إلى بيته..
في الطريق قال لها غسان:
-حدث الأمر كله بطريقة غير متوقعة إنني مندهش لهذا..
-ألا تعترف؟ لسوزان أفكار هائلة..
-ليتك تصيبي دائماً..

-سأحاول فيما سيأتي من زمان، لأن حبي لك سيسدد خطواتي، أريد لحياتنا المشتركة أن تنجح..
-ستنجح عندما تكفي عن التفكير بالرحيل..
-البقاء سيجعلها حياة مأساوية..
-يتوقف هذا على الزاوية التي ننظر بها إليها..
-هناك زاوية واحدة للنظر إلى الموضوع.. هي زاوية الخطر..
-الخطر؟.. إنه موجود في كل زمان ومكان..
-لكن علينا أن نستخدم قدراتنا لنتجنبه..
-حتى لو هربنا منه فإنه سيكون في انتظارنا..
-أتطلب مني البقاء حتى لو تأكد وجود الخطر؟
-لا أطلب شيئاً، أنت تتحملين مسؤولية قرارك واختيارك..
-أنت تضعني على خط المستحيل..
-هل سمعت بقصة الرجل الثري الذي قرر السفر مع عائلته قبل أسابيع لينجو بابنه الصغير الوحيد من احتمالات الموت في القصف وأنفق مبالغ طائلة ليصحب معه أخته ووالده، ولم يمضِ أكثر من أسبوع واحد حتى جاء خبر موت الطفل الوحيد الذي سقط من الطابق الرابع للعمارة التي يقيمون فيها..
-هذه مصادفة، إهمال، سوء تدبير..
-لم أكمل الحكاية بعد.. وهم في عمان شب حريق بتماس كهربائي في بيتهم وأتى على الحارس وكل ما في البيت.. وكان الموت كان يتربص بهم دون اعتبار للمكان.
-من أسمع؟ غسان يتحول إلى التسليم بسلطة القدر؟..

***

ظهيرة اليوم التالي أحضر الصور المؤطرة في سيارة سوزان.. فوجدا حياة منهمكة بإعداد وليمة لهما..
تقول حياة:
-لن أتفرج على الصور الآن، أريد رؤيتها مكتملة تحت الإضاءة عندما يحضر المدعوون..
-هذا أفضل، وأنت يا سوزان، ابقي مع ست حياة، ولا تنظري إلى الصور حتى يكتمل عملنا..
-ألن تعرض بعض صوري؟
-سوزان هذا معرض مختلف.. ألم تقرأي الدليل؟
-لأنني قرأته أطالبك بأن تضع صوري بين هذه الصور.. أنت أسميت المعرض (وجوه وخطى) ألا أملك وجهاً جديراً بالعرض في معرض؟

-ذلك موضوع مختلف، لسنا في مسابقة جمال أو اختبار للعثور على نجمة سينمائية.
-لكنك تملك صوراً فنية رائعة لي..
-لماذا تصرين دوماً على أن يدور العالم حولك وكأنك محور الوجود؟
-ألست كذلك بالنسبة لك؟
-ربما.. لست أكيداً من ذلك..
***

(5)

استوت صور الوجوه والأقدام على مساندها ووجهت المصابيح ذات الإنارة المحددة والمصابيح ذات الإنارة الفيضية في حديقة حياة كان طقس ذلك المساء يعلن أجمل يوم في فصل الصيف.

أحضرت سوزان أطباق المشهيات ووضعتها على مائدة في ركن الحديقة مع المرطبات ووزعت سلال الزهور في الزوايا فوق مناضد صغيرة سلطت عليها الإضاءة بينما لبثت حياة داخل البيت تهيء ثياب ميساء وثيابها..

توافد المدعوون وهمست سوزان لحياة:
-لا يريد غسان أن يفتح المعرض قبل قدوم صديقه الشاعر..؟ أين ميساء؟
-في غرفتها..
تقول سوزان لميساء:
-أليست فكرة رائعة أن تعزفي في افتتاح المعرض؟
تتردد ميساء قبل أن توافق.. تقول لسوزان:
-سأهدي المقطوعة إلى أبي.. ولكن ماذا سأرتدي.. بالتأكيد لن أرتدي بدلة حفلتي..
-يمكنك ارتداء قميص وسروال أسودين وضعي وشاحاً ملوناً على عنقك..
-فكرة جيدة..
-هل تحبين أن أضع لك بعض الزينة على وجهك؟
-لا.. لم أعتد ذلك ولا أحبه.. أفضل أن أظهر كما أنا..
-إذن أقترح أن نرفع شعرك في (شينيون) ذلك أكثر كلاسيكية ورصانة وينسجم مع عزفك..
-ألا تلاحظين أنني أطيعك هذا اليوم بصورة لا يتوقعها أحد؟
-المناسبة تستحق هذا التعاون منا..

عندما أكملت ميساء إعداد نفسها رأتها أمها في مظهرها الأنيق البسيط أحست بالزهو والارتباك.. فهذا البيت لم يألف الأفراح ولا الحفلات ولم يدخله هذا العدد من الضيوف منذ

عرسها وميلاد ميساء..

خرجت النساء الثلاث إلى الحديقة ثم وقفن حيث ستقف ميساء وتعزف على درج الشرفة..

تقدمت حياة خطوتين على المرج فقدمها غسان للحضور..

- ألست حياة، مدرسة اللغة العربية، مالكة هذه الحديقة الجميلة، ولولا كرمها لما استطعت إقامة هذا المعرض..

عرض الصور في حديقة عائلية، سابقة جميلة تربط الحياة اليومية بالفن وتحقق لقاء الفن بالطبيعة والطبيعة بالجمال والإنسان..

يصافحها غسان ويقول لها:

-الآن سترون الصور، سنشاهد أولاً صور (الخطى).

في هذه اللحظة تأتي أم توماس وتهمس لحياة بشيء فتعتذر حياة وترافق المرأة إلى داخل المنزل..

تستغرب سوزان ما يجري وتلحق بهما.

-ماذا حدث؟

-أم توماس متعبة يبدو أن ضغطها ارتفع فجأة سأقيس لها ضغطها وأعطيها حبة مهدئة، اذهبي أنت لا تتركي غسان وحيداً مع الضيوف..

تبدأ ميساء بعزف مقطوعتها فيسود الصمت عندما تتدفق موسيقاها وتغمر الشجر والعشب والنفوس التي انسحرت بعذوبة عزفها..

تقبل حياة سعيدة بابنتها وأصدقائها وتتجه نحو غسان وهو يقف بين حشد الأصدقاء وهم يتأملون صوراً لوجه رجل التقطها غسان من زوايا متعددة ترى أولاً رأس الرجل يتوسط الصورة وعندما تقترب أكثر، يقول لها غسان:

-هذه الصورة أفضل ما حصلت عليه خلال الأيام الأخيرة..

وتقترب حياة وتحدق في الصورة ترى الوجه الناحل والنظرة الضائعة في العينين الغائرتين وتتأمل الفم المزموم على عقب سيجارة، والحزن الذي يحدد تعابير الوجه بنوع من القسوة واللامبالاة، تحدق بالملامح وترى أخيراً الندبة الصغيرة عند طرف الحاجب الأيسر والخال الصغير عند الصدغ، فيشحب وجهها وتغيم عيناها وتترنح وقبل أن تهوي إلى الأرض يسندها غسان وتمسك بها سوزان..

-حياة.. حياة.

حياة لا تسمع ولا ترى ولا تدرك ما يدور حولها.. يأخذها الاثنان إلى داخل البيت وتمددها سوزان على الأريكة.. تسقيها ماءً..

تقول أم توماس:

-افركي يديها..

تمسد لها سوزان جبينها ويديها..

-حياة.. حياة.. ما بك؟
تفتح حياة عينيها وتقول بشفتين راعشتين وصوت مختنق:
-غسان.. إنه هو.. أين عثرت على هذا الرجل؟
-أي رجل؟
-رجل الصورة..
-لا أدري..
-كيف لا تدري؟
-والله لا أدري.. بم يعنيك هذا الرجل؟
-أقول لك إنه هو.. إنه غالب..
-مستحيل.ـ أهذا هو غالب؟.. لا.. لا يمكن..
-أنا أعرف غالب..
-إنه هو أرجوك خذني إليه..
- أين آخذك.. لقد صورته مصادفة عندما كان جالساً على دكةٍ في شارع 14 رمضان.ـ
-أرجوك سوزان.. أرجوك غسان خذاني إليه..
تقول ميساء:
-أمي.. كيف تقولين أن هذا هو أبي؟.. هذا المشرّد لا يشبهه-إنه لا يشبه هذا المشرّد.
-إنه هو.. لا أحد يعرفه كما أعرفه أنا.. أريد أن أبحث عنه..
-سترتاحين قليلاً ثم نرى ما نفعله.. سأخرج لأطمئن الحاضرين.. ابقي معها سوزان..
يقول غسان لضيوفه:
-حدثت معجزة.. كنت أقول دوماً إن المعجزة تحدث في أوانها المناسب..
تخرج سوزان مسرعة:
-إنها تصر على الخروج الآن..
-لا بأس.. فليكن.. فلنخرج الآن.ـ هيا أنت وميساء.. سنذهب للبحث عنه..
-أين؟ تقول ميساء..
-في مدينتنا.. سنمشطها شارعاً شارِعاً وزقاقاً بعد زقاق..
-وكم يستغرق هذا..
-قد يستغرق ساعة.. وقد يستغرق سنة.. لا أدري المهم أن نبدأ.ـ
تقول حياة:
-سنجده.. لقد أحسست به منذ الأمس كان قريباً مني.. وارتبكت روحي واضطرب فؤادي..
-سنجده.. المهم أن نبدأ.. أنت تؤمنين بالمعجزات أليس

كذلك؟
-أنت صنعت لي هذه المعجزة.. سأبقى مدينة لك طوال حياتي..
-بل أنا مدين لك بكل شيء..
-سدد دينك بالبحث عن غالب..
تقول ميساء:
-أنا لا أحتمل كل هذا.. سأبقى هنا.. اذهبوا أنتم، وسأنتظر عند النافذة كما كنت أفعل دوماً..

———
—

المؤلفــات:

1-ممر إلى أحزان الرجال –قصص-بغداد-1970.
2-البشارة-قصص-بغداد-1975.
3-التمثال-قصص-بغداد-1977.
4-إذا كنت تحب-قصص-بغداد-1980.
5-عالم النساء الوحيدات-رواية وقصص-بغداد-1986.
6-من يرث الفردوس-رواية-القاهرة-الهيئة المصرية العامة للكتاب-1987.
7-بذور النار-رواية-بغداد-1988.
8-موسيقى صوفية-قصص-بغداد-1994 (جائزة أفضل كتاب قصصي 1994) يدرس الكتاب في قسم الدراسات الشرقية-جامعة بوخارست-رومانيا.
9-في المغلق والمفتوح-مقالات فكرية-تونس-دار نقوش عربية-1997.
10-ما لم يقله الرواة –قصص-دار أزمنة-الأردن-1999.
11-شريكات المصير الأبدي-دراسة عن المرأة المبدعة في حضارة العراق القديمة-دار عشتار-القاهرة-1999.
12-خسوف برهان الكتبي-رواية-دار ألواح-مدريد-إسبانيا-2000.
13-الساعة السبعون-نصوص-دار الشؤون الثقافية-بغداد-2000.
14-ضحكة اليورانيوم/مروية عراقية عن واقعة العامرية –بغداد/ 2000 الجائزة الأولى للرواية 2001.
15-برتقال سميه-قصص-دار الشؤون الثقافية-بغداد/2002.

في الترجمة عن الإنكليزية:

1-بلاد الثلوج-رواية-ياسوناري كاوا باتا-بغداد-دار المأمون-1985.
2-ضوء نهار مشرق-رواية-أنيتا ديساي-بغداد-دار المأمون-1989.
3-مذكرات أنابيس نن-دار أزمنة-الأردن-2000.
4-شجرة الكاميليا وقصص أخرى-بغداد-2001.

كتب معدة للطباعة:

1-كتاب الحياة والكلمات-مذكرات وحوارات.
2-ترانيم إينانا-نصوص.
3-حديقة حياة-رواية.
4-رواية (مخطوطة).

الأعمال الدرامية:

1-مسرحية الليالي السومرية –قدمتها الفرقة القومية للتمثيل 1994 ونالت جائزة أفضل نص يستلهم التراث العراقي القديم وأفضل إخراج للفنان سامي عبد الحميد.
2-قمر أور.
3-الكرة الحمراء.
4-الشبيه الأخير.
5-شبح كلكامش.
6-نبوخذ نصر-مسلسل تاريخي –12 ساعة عن الحضارة البابلية.
7-صدى حضارة-سيناريو وثائقي عن الموسيقى في الحضارات العراقية.
8-عالم النساء الوحيدات، الحياة البعيدة، رياح الأزمنة: -مسلسلات إذاعية.

الدراسات:

1-المرأة والإبداع-سلسلة مقالات.
2-الحرية في الأدب وأدب الحرية (دراسة).
3-الإبداع النسائي-واستنطاق الميثولوجيا (دراسة).
4-التجربة والجذور (نكتب ونجازف)-دراسة-.
5-جدل الأنوثة في الأسطورة –نفي الأنثى من التاريخ (دراسة).
6-مقالات في انتباهات القراءة (قراءة في بعض أعمال الأدباء الشباب).
7-عولمة الأرض أم نفي البشر (مجموعة دراسات).
8-صورة المرأة العربية في الأعلام المعولم-دراسة.

ترجمت قصصها إلى اللغات: الصينية –الروسية-البولونية-الإنكليزية-الإيطالية-الرومانية-السويدية..

❐❐